في ظلال الإسلام

(٢٤)

في الرد على الماديين

دراسة نقدية لكتاب (حضارة العرب) للدكتور جوستاف لوبون

للعلامة المجاهد
محمد فريد وجدى

تقديم وتذييل
أ. د. محمد عمارة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

طباعة وتوزيع دار المعارف

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر
المؤلف ولا تعبر عن وجهة نظر الناشر

تصميم الغلاف: هاجر محمود

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

على امتداد التاريخ الإسلامى تبلور فى الفلسفة مذهبان وتياران:

- المذهب الإلهى، الذى يؤمن بقوة علوية فاعلة فى هذا الوجود.. ويستخدم العقل فى البرهنة على ما يريد..
- ومذهب مادى، حسى، لا يؤمن بما هو خارج عن المحسوس، ويحصر مصادر المعرفة الإنسانية فيما تدركه الحواس والمشاعر الخمسة.

ولقد عرفت الفلسفة اليونانية هذا المذهب الحسى منذ بواكيرها، عند الفيلسوف «ديمقريطس» [القرن الخامس ق.م].. وبعد مرحلة التدين الأوربى بالمسيحية، عاد هذا المذهب الحسى المادى إلى السيادة والصدارة إبان النهضة الأوربية الحديثة.. وقال به فلاسفة كثيرون، من أبرزهم «هوبز» [١٥٨٨ - ١٦٧٩م] و«كوندياك» [١٧١٤ - ١٧٨٠م] و«هيوم» [١٧١١ - ١٧٧٦م].. وذلك فضلا عن فلاسفة المادية الجدلية والتاريخية، مثل «ماركس» [١٨١٨ - ١٨٨٣م] و«إنجلز» [١٨٢٠ - ١٨٩٥م] وغيرهم من الذين رأوا أن الحواس هى المصدر الوحيد لجميع المعارف الإنسانية، وهى وحدها التى تفصل فى قيمة هذه المعارف وأن المعقول مردود إلى المحسوس.. ولذلك أنكر أصحاب هذا المذهب الحسى المادى وجود مصادر للمعرفة خارج المحسوسات التى تدركها الحواس، إذ الطبيعة - برأيهم - مستكفية بنفسها ولا وجود لشىء خارج هذه الطبيعة، وأن الحياة الخلقية هى امتداد للحياة البيولوجية، وأن الإنسان حيوان طبيعى اجتماعى، فهو جزء من الطبيعة، وهى التى تزوده، وسعادته دنيوية محضة، يجدها فى العاطفة والشهوة وحدهما.. ومن ثم، فلقد أنكروا معارف الوحى الإلهى والغيب والدين..

● ولقد عرفت الفلسفة الشرقية ـ هى الأخرى ـ هذا المذهب الحسى.. فقال به الدهريون ـ ومنهم مشركو العرب ـ الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ـ الجاثية: ٢٤ ـ أى الزمان..

وفى المصادر الأولى التى أرخت للمذاهب والمقالات فى حضارتنا الإسلامية ـ ومنها كتاب [مقالات الإسلاميين] لأبى القاسم البلخى [٣١٩ هـ/ ٩٣١م] ـ حديث عن سيادة هذا المذهب الحسى، الذى يقول أصحابه: «إنه لا طريق للعلم سوى الحس» ببلاد «السند» ـ فى شبه القارة الهندية ـ حيث سادت الديانات الوضعية، التى ينكر أهلها الوحى والغيب والنبوات والرسالات.

ولقد روى البلخى قصة المناظرة التى قامت بين بعض علماء «السُّمنية» من أصحاب هذا المذهب ـ ببلاد السند ـ وبين «الجهم بن صفوان» [١٢٨ هـ/ ٧٤٥م] والتى سأل فيها علماء السُّمنية الجهم عن معبوده الذى يعبده، فقالوا له:

ـ «هل يخرج المعروف ـ [أى المعلوم] ـ عن المشاعر الخمسة ـ [أى الحواس الخمسة] ؟.

ـ فقال الجهم: لا

ـ فقالوا له: فحدثنا عن معبودك الذى تعبده، أشىء وجدته فى هذه المشاعر ـ [الحواس] ؟.

ـ فقال الجهم: لا.

ـ فقالوا له: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل فى المجهول.

فسكت الجهم»!!.

لكن الجهم بن صفوان ـ وكان جبريا ـ بعد أن انهزم أمام علماء «السُّمنية» فى هذه المناظرة، كتب بخبرها ووقائعها إلى زعيم المعتزلة وفيلسوفها «واصل بن عطاء» [٨٠ ـ ١٣١ هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٤٨م] ـ بالبصرة ـ الذى قيل إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد رد على جميع المخالفين للإسلام ولمذهب الإسلام فى المعرفة ـ الذى لا يقف بها عند الحواس ـ فقد ورد ضمن عناوين كتبه: [كتاب الألف مسألة]!..فرد «واصل بن عطاء» على «الجهم بن صفوان» برسالة ذكر له فيها مذهب الإسلام فى المعرفة الذى لا ينكر الحواس كمصدر من مصادر المعرفة، لكنه لا يقتصر عليها وحدها، وإنما يضيف إليها «الدليل» الذى يثبت المعارف غير المحسوسة ـ ومنها لوازم المحسوسات ـ وطلب «واصل» من «الجهم» أن يعود إلى علماء «السُّمنية» طالبا منهم إقامة المناظرة من جديد..

وفى رسالة «واصل» إلى «الجهم» قال له:

« إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة ـ وعن الدليل.. فارجع إليهم الآن وقل لهم:

هل تفرقون بين الحى والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟. فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يُعرف بالدليل لا بغيره».

فالدليل: الذى يلزم من العلم به العلم بشىء آخر، يدرك به الإنسان غير المحسوسات.. يدرك به لوازم المحسوسات.. والإدراك بالدليل ليس إدراكا مباشرا كحال الإدراك بالحواس.. ومن أمثلة الإدراك بالدليل:

إنه يلزم من العلم بالمصنوع البديع ـ وهو محسوس ـ العلم بوجود الصانع المبدع ـ وهو معلوم غير محسوس، لا يُدرك بالحواس..

وبالدليل، الذى يدرك لازم المحسوس، يدرك الإنسان وجود «الحياة» فى الأحياء ـ وهى ليست مادة تدرك بالحواس..
ويدرك وجود «الموت» فيمن فارق الحياة ـ وهو الآخر ليس مادة تدرك بالحواس..
ويدرك وجود «العقل» عند العقلاء ـ وهو ليس مادة تدرك بالحواس..
ويدرك وجود «الجنون» فى المجانين ـ وهو ليس مادة تدرك بالحواس..

فمذهب الإسلام فى المعرفة لا يقف بمصادرها عند المحسوسات، ولا يقف بأدواتها عند الحواس.. كذلك فإن تعريف الإسلام «للعقل» لا يلحقه بالحواس، ولابمادة الدماغ، وإنما يراه «لطيفة ربانية لها تعلق بالقلب الجسمانى.. ونور فى القلب، يعرف الحق والباطل.. فهو نور معنوى، يبصر به القلب ـ [أى النفس الإنسانية] ـ المطلوب، أى ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكره بعد انتهاء درك الحواس، ولهذا قيل: بداية العقول نهاية المحسوسات.. فهو نور الغريزة، يزيد مع التجارب، ويقوى بالعلم والحلم»[1].

فلما عاد الجهم بن صفوان إلى علماء السُّمنية بمذهب الإسلام فى المعرفة ـ الذى علّمه إياه واصل بن عطاء ـ وأعاد معهم المناظرة من جديد.. وجدوا أنفسهم أمام منطق جديد، يقيم الدليل المنطقى على وجود مصادر للمعرفة تتجاوز المحسوسات، وعلى آليات لتحصيل المعرفة تتجاوز الحواس.. وعند ذلك، سأل علماء السُّمنية الجهم بن صفوان:
ـ «ليس هذا من كلامك، فمن أين لك ؟»

---

(١) الجرجانى: [التعريفات] طبعة القاهرة ١٩٣٨م. وأبو البقاء اللغوى [الكليات] تحقيق: عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق ١٩٨١م. والحارث المحاسبى [العقل وفهم القرآن] ص ١٤٧. تحقيق: حسين القوتلى ـ طبعة بيروت الثانية ـ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

ـ فقال الجهم: «كتب به إليّ رجل من علماء البصرة، يقال له واصل». فخرجوا إليه ـ إلى واصل بن عطاء ـ وكلموه «فأجابوه إلى الإسلام»![1]

● هكذا عرفت الفلسفة الإنسانية ـ عبر تاريخها ـ الشرقى والغربى ـ فى نظرية المعرفة ـ مصادرها وآليات تحصيلها ـ مذهبين:

١ ـ المذهب الحسى، الذى يقف بمصادر المعرفة ـ عند المحسوسات، وبآليات تحصيلها عند الحواس..

٢ ـ والمذهب الإلهى، الذى لا يقف بمصادرها عند المحسوسات، والذى لا يختزل أدوات تحصيلها فى الحواس. وهو المذهب الذى أطلق عليه الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] «الهدايات الأربع».. هداية العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. والذى يصحح العقل فيه أخطاء الحواس.. ويقدم فيه الوحى من نبأ الغيب مالا تدرك كنهه وحقيقة جوهره العقول التى هى ـ ككل ملكات الإنسان ـ نسبية الإدراك..

وبعبارة الإمام محمد عبده:

«..فلقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

أولاها: هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى، وتكون للأطفال منذ ولادتهم.

والثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان، فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير.

---

(١) أبو القاسم البلخى، والقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى، والحاكم الجشمى: [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ٢٢٦ تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس ١٩٧٢م.

والثالثة: هداية العقل. خُلق الإنسان ليعيش مجتمعا. ولم يُعط من الإلهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل. فحباه الله هداية هى أعلى من هداية الحس والإلهام، وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعيد صغيرا، ويرى العود المستقيم فى الماء معوجا، والصفراوى ـ [المريض بالصفراء] ـ يذوق الحلو مرا. والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الإدراك.

الرابعة: هداية الدين. يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية، والنوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مُسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة.. فاحتاج الناس إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم، إذا هى غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها..

ثم، إن مما أودع فى غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان، ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبب، لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة. فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة، الذى خلقه وسواه ووهبه هذه الهدايات وغيرها مما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية؟

كلا! إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة ـ الدين ـ وقد منحه الله إياها[1] ذلك هو مذهب الإسلام فى المعرفة ـ مصادرها.. وآليات إدراكها..

---

(١) الإمـام محمد عبـده [الأعمال الكاملة] جـ٤ ص٤٣ ـ ٤٦. دراسـة وتحقيق. د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة ١٩٩٣م.

- وكما سبقت إشارتنا، فإن المذهب الحسى ـ الذى يقف بالمعرفة عند الحواس والمحسوسات والذى ينكر الوحى والنبوات والرسالات والمعجزات المفارقة للواقع المحسوس ـ قد عاد فساد فى النهضة الأوربية الحديثة..، التى نظرت إلى حقبة النصرانية الأوربية «كجملة معترضة» بين الحقبة اليونانية وبين هذه النهضة الحديثة..
- وعندما ذهب رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] إلى باريس ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م، وخبر واقع النموذج الحضارى الغربى، رأى الفلسفة الوضعية المادية التى تقف عند التجارب الحسية، والتى تستعين بالعقل المجرد عن الشرع، والتى وإن طورت علوم التمدن المدنى، وعمران الواقع المادى، إلا إنها أنكرت وتنكر الوحى والغيب والدين والنبوات والرسالات والمعجزات، بل وتفسر ظاهرة «الوحى» تفسيرا «بيولوجيا» ماديا، فتراه لونا من ألوان الخيالات الجنونية أو الهوس المرضى!!. فمدح الطهطاوى ما رآه فى باريس وأوربا من تقدم فى علوم التمدن المدنى وعمران الواقع الاجتماعى.. وانتقد ورفض ما وجده من الفلسفة الوضعية الحسية، التى وصفها بأنها: «حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية.. إذ إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع».

وتحدث عما رآه هناك من تقدم علمى وتقنى ـ فى علوم التمدن المدنى ـ وما غرقوا فيه من ضلالات فلسفية، فقال:

أيوجد مثل باريس ديار ... شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح ... أما هذا، وحقكم عجيب!

فهذه المدينة ـ باريس ـ كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسّنة والمقبّحة بالعقل وحده، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: «إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب» ولذلك، فهو لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية»[1].

ولقد تحدث الطهطاوى عن الأصول الإسلامية لعلوم التمدن المدنى ـ علوم عمران الواقع المادى ـ التى أخذها الأوربيون ـ إبان نهضتهم الحديثة ـ عن تراثنا الإسلامى. ثم طوروها وأضافوا إليها.. لقد أخذوا هذه العلوم الطبيعية ومناهج التجريب التى أبدعها المسلمون، لكنهم لم يأخذوا خصوصيات الإسلام فى الإيمان بالوحى والغيب والنبوات والرسالات، ومن ثم بنوا نهضتهم الحديثة على العلوم الطبيعية وتقنياتها ـ التى هى مشترك إنسانى عام بين كل الحضارات ـ وعلى الفلسفة الحسية الوضعية المادية ـ التى ورثوها عن قدماء اليونان.

● ولقد انعكست هذه الازدواجية ـ الإشادة بالجانب العلمى فى الحضارة الإسلامية.. مع الرفض للمعرفة الإيمانية فى هذه الحضارة ـ انعكست فى العديد من الدراسات التى أبدعها فلاسفة ومفكرون أوربيون كثيرون عن الحضارة الإسلامية، وإنجازاتها العبقرية، وتميزها عن غيرها

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٣م.

من الحضارات.. فكانت إشادة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الأروبيين بالتمدن المدنى الإسلامى، ورقى الشخصية الحضارية العربية.. مع رد كل ذلك إلى الأسباب المادية والوضعية، دون العامل الدينى بسبب إنكار هؤلاء الفلاسفة والمفكرين للنظرية الإيمانية فى المعرفة، وانحصار عقولهم فى الحواس والمحسوسات، كمصادر للمعرفة وآليات لتحصيلها.

- ومن بين هؤلاء الفلاسفة الأوربيين عالم الاجتماع الفرنسى «جوستاف لوبون» [١٨٤١ ـ ١٩٣١م] الذى أنصف الحضارة العربية إنصافا عظيما فى كتابه الفذ [حضارة العرب].. والذى أساء فيه ـ فى ذات الوقت ـ الحديث عن الجانب الدينى والغيبى.. جانب الوحى ـ لرسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم.. فانطلق فى وصف هذا العامل ـ الذى هو المؤسس الحقيقى للحضارة الإسلامية، والمميز الأول لها عن غيرها من الحضارات ـ انطلق جوستاف لوبون فى وصفه لهذا الجانب من فلسفته الحسية الوضعية المادية، معتبرا ذلك الوحى «خيالات مرضية.. أو لونا من الهوس» لازم كل الأنبياء والرسل على مر التاريخ!!.
- وعندما ترجم الأستاذ عادل زعيتر [١٣١٤ ـ ١٣٧٦هـ/ ١٨٩٧ ـ ١٩٥٧م] هذا الكتاب إلى العربية ـ ونشر ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م. رحبت الحياة الفكرية العربية بما فيه من إنصاف كبير لما بناه العرب والمسلمون من حضارة عبقرية فريدة تعلمت منها أوربا والدنيا كلها.. ورأوا فيما كتبه جوستاف لوبون شهادة أوربية ضد الافتراءات الأوربية الكثيرة التى كانت تنهال على الشرق العربى والإسلامى.. و مع هذا

الترحيب والاحتفاء ثم النقد والتفنيْد لما فى كتاب جوستاف لوبون من إساءة إلى الجانب المعجز والغيبى فى إنجاز النبوة بصدر الإسلام.

ولقد كانت مجلة [الأزهر] فى مقدمة المنابر الفكرية التى اتخذت هذا الموقف المتوازن من كتاب الدكتور جوستاف لوبون.. وذلك عندما رحبت بترجمة الكتاب ونشره، لما فيه من إيجابيات رجحت وترجح ما فيه من سيئات وخطايا وسلبيات.. فقدمت النقد الفلسفى والعلمى الموضوعى للفلسفة الحسية المادية الوضعية التى جعلت الدكتور جوستاف لوبون يقع فى هذه الخطيئة..

ولقد كانت الدراسة التى قدمها العلامة محمد فريد وجدى [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] وكان يومئذ رئيسا لتحرير مجلة [الأزهر] ـ عن كتاب [حضارة العرب] لجوستاف لوبون أو فى الدراسات التقويمية والنقدية التى نشرت عن هذا الكتاب، عندما صدرت ترجمته العربية فى طبعتها الأولى.. ولقد جاءت هذه الدراسة ضمن الفصول التى كتبها الأستاذ محمد فريد وجدى عن [السيرة المحمدية] ـ ونشرتها مجلة [الأزهر] بالمجلد السابع عشر ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

- ومع تكرار طبعات هذا الكتاب ـ فى سنة ٢٠٠٠م. وسنة ٢٠١٢م ـ تجددت المواقف النقدية لما جاء فيه من خطايا وسلبيات؛ ففى سنة ٢٠٠٠م، وبتكليف من مجمع البحوث الإسلامية، قدم كاتب هذه الدراسة تقريرا عن هذا الكتاب نوقش فى اجتماع مجلس المجمع المنعقد بتاريخ ٧/١١/٢٠٠٠م.

ـ كما قدم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن العدوى ـ عن ذات الكتاب ـ

تقريرا ثانيا، نوقش فى جلسة مجلس المجمع بتاريخ ٢٠٠١/٢/١١م. ـ كما قام المرحوم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى بكتابة تقرير لخص فيه دراسة العلامة محمد فريد وجدى، بتاريخ ٢٠٠٢/١/٩م. قدم هو الآخر، إلى مجلس المجمع..

● ومع صدور طبعة جديدة لهذا الكتاب ٢٠١٢م.. ومع تجدد الاعتراضات على ما جاء بالكتاب من سلبيات شابت ما جاء به من إيجابيات.. رأى مجمع البحوث الإسلامية إعادة طبع الدراسة النقدية التى سبق ونشرتها مجلة [الأزهر] ـ للعلامة محمد فريد وجدى ـ كاملة ـ مرة أخرى.. وذلك تعبيرا عن الموقف المتوازن من إيجابيات النظرات الغربية المنصفة لحضارتنا.. دون إغفال النقد والتفنيد لما فى هذه الدراسات الغربية من سلبيات..

فمع تصاعد ظاهرة الكراهية الغربية للإسلام، والنمو المخطط للتخويف من الإسلام، والتزييف لصورته.. تتزايد الحاجة إلى نشر الشهادات الغربية التى كتبها أعلام وعلماء غربيون فى إنصاف حضارة الإسلام، وذلك دون إغفال النقد العلمى والموضوعى لما فى هذه الشهادات من سلبيات..

والله من وراء القصد.. نسأله الهداية والتوفيق.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور

محمد عمارة

عضو هيئة كبار العلماء..

ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

التعريف بالعلاَّمة محمد فريد وجدى [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م]

- هو: محمد فريد بن مصطفى وجدى بن على رشاد.
- ولد ونشأ بالإسكندرية.. وأقام زمنا بدمياط، حيث كان والده وكيلا لمحافظتها ـ مدير مديريتها ـ وانتقل مع أبيه إلى مدينة السويس.. ولما سكن القاهرة عمل موظفا فى وظيفة صغيرة بديوان نظارة الأوقاف.
- أتقن اللغة الفرنسية مع إتقانه اللغة العربية. وتبحر فى الثقافة الغربية. مع تبحره وإحاطته بالثقافة العربية والإسلامية.. وكان عصاميا فى تكوينه الثقافى والفكرى، إذ انصرف عن التعليم النظامى وهو فى المرحلة الثانوية.
- وكانت قضيته الأولى طوال حياته الدفاع عن الإسلام، بالعلم والمنطق العقلى، ردا على الفلسفة المادية والوضعية التى غزت العالم الإسلامى فى ركاب الاستعمار.. ولقد وهب حياته خالصة للرباط على ثغور الفكر، فعزف ـ مترفعا ـ عن غِشيان المجالس العامة، وقل أن يزور أحدا أو يجيب دعوة أحد.. وكان يأنس بزواره فى بيته.
- ولقد توجه بفكره إلى علماء الغرب، فألف بلغاتهم، وإلى قراء العربية ليحصن عقولهم ضد الفكر المادى ونزعات الزندقة والإلحاد، وضد خداع المنصّرين.. كما توجه بفكره هذا إلى علماء الإسلام ليساعدهم على التجديد ومغادرة حياة الجمود والتقليد.

- أصدر عددًا من المجلات.. منها مجلة «الحياة» إبان إقامته بدمياط.. وفى القاهرة أنشأ مطبعة أصدر بواسطتها جريدة «الدستور» ـ يومية، مناوئة للاستعمار الإنجليزى ـ .. ثم مجلة «الوجدانيات» شبه أسبوعية..
- وكانت باكورة تآليفه ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥م ـ وهو فى الثامنة عشرة من عمره ـ رسالة:

١ ـ [الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان].. ثم توالت مؤلفاته.. ومنها:

٢ ـ [تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية] ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م.ـ كتبه أولا بالفرنسية.. ثم ترجمه إلى العربية.. ولقد سماه ـ فى الطبعة الأولى ـ [المدنية والإسلام].

٣ ـ [الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية] ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

٤ ـ [على أطلال المذهب المادى] ـ فى أربعة أجزاء ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م.

٥ ـ [صفوة العرفان] ـ وهو تفسير موجز للقرآن الكريم.

٦ ـ [كنز العلوم واللغة] ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م ـ وهو دائرة معارف لفصيح اللغة العربية، وخلاصات العلوم النقلية والعقلية والطبيعية، ومختصر لتراجم المشاهير.. ولقد رتب مواده ترتيب القاموس.. ثم توسع فيه فتحول إلى [دائرة معارف القرن العشرين].

٧ ـ [مجموعة الرسائل الفلسفية] ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م.

٨ ـ [المرأة المسلمة] ـ رد به على كتاب [المرأة الجديدة] لقاسم أمين ـ ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م ـ ولقد ترجم إلى التركية والفارسية والأردية.

٩ ـ [الوجديات] ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م ـ وهو مقالات فى الدين واللغة والوطن.

١٠ ـ [الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الأجنبية].

١١ ـ [دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى ـ العشرين الميلادى] ـ فى عشرة مجلدات ـ صدرت طبعتها الأولى ما بين ١٣٢٨هـ و ١٣٣٦هـ و ١٩١٠م ـ ١٩١٨م ـ ولقد أراد أن تكون ـ فى العربية ـ كقاموس [لاروس] فى الفرنسية ـ فكانت أشهر أعماله الفكرية.. ولقد قررتها نظارة المعارف فى مكتبات المدارس.

١٢ ـ [ما وراء المادة] ـ فى جزئين.

١٣ ـ [الإسلام فى عصر العلم] ـ فى مجلدين.

١٤ ـ [الإسلام دين عام خالد].

١٥ ـ [معالم الإسلام].

١٦ ـ [كتاب المعلمين] ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م.

١٧ ـ [مهمة الإسلام فى العالم].

١٨ ـ [نقد كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين] ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م ـ وهو الذى قرظه زعيم الأمة سعد زغلول باشا [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ/ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م.] فى رسالة بليغة إلى فريد وجدى قال فيها:

حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدى.

وصلنى. كتابك الذى وضعته فى نقد كتاب [فى الشعر الجاهلى] وتفضلت بإرساله إلىَّ، وقرأته فى عزلة تجمع الفكر. وسكون يحرك الذكر، فراقنى منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة فى أدب رائع، وتحقيق دقيق فى أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين فى علم واسع، وانتصاف للحقيقة فى احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلبا فياضا بالإيمان وعقلا مثقفا بالعرفان، ونفسا محلاة بالأدب، فقررت عينا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من

أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم في دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها. والسلام على المهتدين».

[١٦ أكتوبر ١٩٢٦م] سعد زغلول[1]

١٩ ـ [ليس من هنا نبدأ] ـ وهو رد على كتاب الأستاذ خالد محمد خالد [من هنا نبدأ].

- كما أصدر فريد وجدى مجلة لمباحث الحياة الروحية والتنويم المغناطيسى، جعل أبحاثها حجة علمية على المنكرين لعالم الغيب من الماديين.. وكان يحسن الاستفادة من الاكتشافات العلمية الأوربية الحديثة فيوظفها فى نظرة التفسير الإيمانى للظواهر العلمية.
- كما كتب فصولا فى السيرة المحمدية ـ جمعها المرحوم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى، وأصدرها فى كتاب.
- ولقد تولى محمد فريد وجدى رئاسة تحرير مجلة [الأزهر] ثمانية عشر عاما، فارتفع بمستواها، وخصها بنفائس أفكاره، ثم اعتزل رئاسة تحريرها ـ مخلدا إلى الراحة ـ قبل وفاته بنحو عامين.
- وغير المجلات التى أصدرها، والتى رأس تحريرها، أسهم بالمقالات والدراسات فى [المؤيد] و [الأهرام] و [الرسالة] و [الهلال] و [المعرفة] و [المقتطف] و [الحديث] ـ وغيرها من المجلات الفكرية المتخصصة.

---

(١) محمد إبراهيم الجزيرى [سعد زغلول: ذكريات تاريخية] ص٣٧. طبعة «كتاب اليوم» ـ القاهرة.

● وعندما انتقل إلى رحاب ربه نعاه العلماء والكبراء والزعماء ووصفه الأستاذ عباس محمود العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م] بأنه «فريد عصره. وما وجد اسم فى هذا العصر يوافق صفته إلا اسم. فريد» وكان البعض يقرنه بالأستاذ الإمام الشيخ. محمد عبده.. رحمهم الله جميعا..

دكتور
محمد عمارة

العلامة محمد فريد وجدى:
فى نقد كتاب (حضارة العرب)
للدكتور جوستاف لوبون

المقال الأول

فى بلاد العلم اليوم رجال من كبار العقول، لا يتقيدون بفلسفة مقررة محدودة، ولكنهم يأخذون بأحسن ما يجدونه فى جميع الفلسفات. ذهابا منهم إلى أن الحقائق المطلقة لا يمكن أن تكون وقفا على واحدة منها، وأن أسلوبا واحدا من البحث لا يصح أن يحتكر كل طرق الوصول إليها. نزعة جديدة فى الإخلاص للحقائق، لم تنجل على أكمل حالاتها إلا لدى مفكرى القرن التاسع عشر، بعد أن أدرك العقول اللغوبُ من جراء التقيد بالتقاليد المذهبية، والتعصب لأصولها ووجهات نظرها. فكان أوجه أسلوب لدى هؤلاء المجددين أن لا يتقيدوا بوجهة نظر واحدة، وأن لا يجمدوا على أصول مقررة قد تصدهم عن النظر إلى ما هم بسبيله من ناحية قد تناقص تلك الأصول، وتتفق ووجهة نظر أخرى لفلسفة أخرى.

هـذا مـا يتعلق برجال العالم من كبار العقـول، وأثر هذه النزعة فى الإيصال إلى الحقائق من أقرب الطرق إليها: وأما ما يتعلق بسائر الناس، فإن هذا الأسلوب ألزم ما يلزمهم للوصول إلى الحقائق، لأن أكثرهم يتخذ مما سمعه فى أول عهده بالنظر، وما قرأه فى بعض ما كتب من يحسن الظن بهم، سـدودا أمام كل مـا يناقضها مـن الآراء والمذاهب، فيظل ينافح عما اختزنه فى عقله من المعلومات الضالة، ويدفع كل ما يكشف عنه السـوء من ناحيتها، حتى ينتهى وجـوده وهو على ضلاله القديم.

إن مبدأ الأخذ بالأحسن الذى أصبحت الحكمة العالمية مدينة له بثروتها ومكانتها الحالية، هو المبدأ الذى دعت إليه الحكمة القرآنية منذ نحو أربعة عشر قرنا فى قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: آية ١٧ - ١٨].

فقد أمر المسلمون أن يسمعوا كل قول، ويستعرضوا كل مذهب، وأن لا يحملهم التعصب للرأى على أن يرفضوا كل رأى دون تفهم وتمحيص، وأن يأخذوا من بينها ما يجدونه أحسن. وقد وصف الله الذين يفعلون ذلك بأنهم المهديون هداية إلهية، وبأنهم أهل العقول الراجحة والبصائر النيرة.

هذا التوجيه الإلهى أقام المسلمين منذ أول نشوئهم على أمثل الطرق المؤدية للحقائق، فلا غرو أن يهتدى المسلمون إلى حقائق علمية، ومناهج حكمية، وأصول اجتماعية لم يهتد إليها من سبقهم فى الاجتماع والثقافة بعشرات القرون، وكانت نتيجة ذلك أن أوتوا خلافة الله فى الأرض أجيالا متعاقبة لم ينافسهم فيها منافس، ولم يطمع فى وقف سيرهم طامع.

وكما أوصاهم الحق بأن يستمعوا لكل قول، وأن يأخذوا بأحسن ما يتخيرون، كشف لهم من أدواء العقول، وأمراض النفوس ما يجعلهم يحترزون من الخطأ فى التقدير، ومن التقصير فى التمحيص، ومن متابعة الأهواء فى التقدير. فأول ما لفت النظر إليه مكان الهوى من نفس الإنسان، وما يوحيه إليها من الضلالات التى تهوى بالإنسان إلى مكان سحيق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام: آية ١١٩] ونبه سبحانه على محل الظن من مزاعم الناس فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [سورة الأنعام: آية ١١٦] (أى يكذبون).

ووجه جل وعز نظر المسلمين إلى أن أكثر الناس لا يعتمدون فى مذاهبهم على أساس يصح أن يعتمد عليه، وإنما يبنونها على غير قرار ثابت، فتنهار لأول صدمة من شبهة أو تحقيق، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [سورة لقمان: آية ٢٠] وأمرهم أن يطالبوا من يسمعون إليه بالدليل، فإن عجز عن إقامته سقط كل ما يقول، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٤٨].

فكل هذه التوصيات الإلهية تعتبر من المناعات القوية التى تحمى عقول الآخذين بالإسلام من الوقوع تحت تأثير الأهواء والظنون، وتدل دلالات قوية على وجوب التعويل على العلم فى تخير ما يأخذون به وما يرفضونه من جملة ما يسمعون. إن هذه الوصايا الكريمة كما وسّعت من صدور المسلمين للاستماع لكل قول، والأخذ بالأحسن مما يلقى إليهم، حذرتهم من أن يؤخذوا على غرة فيقعوا فيما وقعت الأمم السابقة فيه من الأهواء والظنون.

وكما وقفتهم على هذا السمت العادل من مجموعة الآراء البشرية، والمذاهب الكلامية، خدمتهم فى الأخذ بالعلوم التى تبنى العمران، وتنفع الناس فى حياتهم الدنيوية. فأكبوا على قراءة المؤلفات الطبية والطبيعية،

وترجمـوا مالـم يكن لـه أصل عربـى. وزادوا على ذلك بـأن عمدوا إلى المكتبات فاستخرجوا منها المؤلفات القديمة التى وضعها أئمة العلوم فى العصـور الماضية، وأمروا بترجمتها إلى اللغـة العربية، وأخذوا منها ما وجدوه صالحا للعمل به، وأهملوا منها ما لا يصح التعويل عليه، ونشطوا لذلك نشـاطا سـجل لهم الحمد فى التاريخ، واعتبروا من أجله مؤسسين لعهد للإنسـانية جديد، وأخذت عنهم الأمم مـا كانت فى حاجة إليه، فعاد للبشرية بسببهم حركتها فى الارتقاء، واعتمدت جميع مدارس العالم وجامعاتها مؤلفاتهم فى تدريس العلوم، وشهد لهم المؤرخون بأنه لولاهم لكانت أوربا بقيت فى الظلام البهيم.

ومن عجب أنهم عمدوا إلى الأخذ بمذهب أرسطو العملى، ولم يأخذوا بمذهب أفلاطون الخيالى، ولا شك فى أن هذا مما تأثروا به من تعاليم كتابهم الكريم.

هذه الحركة التى قام بها المسلمون الأولون فى العالم تعتبر من الأعاجيب التى يجب أن تتأملها العقول، وتكبرها القلوب... فمن كان يتوهم أن الركود الذى كان قد أصاب الجماعات البشرية، والجمود الذى شل حركتها العقلية، تحل محلها حياة أدبية، ويقظة علمية، تأتيانها من قبل أمة بدوية أمضت أجيالا كثيرة فى الجاهلية والأمية؟.

يعلل الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) هذا الانقلاب الذى ليس له شبيه فى التاريخ بأن العلة فيه أن للأمة العربية قُدمة فى المدنية، وأنها ورثت عن آبائها الأولين من الاستعداد للنهوض، والقابلية للترقى، ما يكفى لإبلاغها هذا الشأو البعيد من المكانة العلمية.

وهذا فى نظرنا ونظر كل متأمل تعسف كبير فى انتحال العلل، لا يقره عليه العلم نفسه الذى يستند إليه الدكتور جوستاف لوبون فى تقريراته التاريخية. فهذه القدمة لم يختص بها العرب وحدهم، فقد كان للصينيين والهنديين والمصريين والبابليين قدمة فى هذه المجالات المدنية، فلماذا تختص قدمة العرب وحدهم بإخراجهم من جاهليتهم الأولى الموروثة طفرة، والتغلب على سائر الأمم التى كانت على تدهورها لا تزال تحتفظ فى بدء نهوض الأمة العربية بدرجة من المدنية تجعل لها السبق فى مجالها أجيالا كثيرة؟.

يحاول الدكتور جوستاف لوبون أن لا يجعل للعامل الإسلامى أثرا يذكر فى إحداث النهوض العربى المجير للعقل، وهيهات أن يفلح فى ذلك، وليس يرى الباحث فى تاريخ العرب الحديث غير الإسلام سببا فى إحداث هذا الحدث الضخم من التجديد العالمى الذى لم تر البشرية له شبيها قبل بعثة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

فلو كان العرب قبل البعثة المحمدية قد تداعوا إلى تحسين شئونهم، وتوحيد قبائلهم، وصرحوا بما كان لهم من المكانة المدنية فى ماضيهم، ودعوا لإحياء مواتها، وإعادة سلطانها. لكان للمشتبه عذر فى إشراك تأثير هذه الدعوة مع الإسلام فى إعادة بناء حضارتهم. ولكن الإسلام جاء والعرب فى أحط دركات الجاهلية، وأشد درجات الجمود، وبذل مجهودا كبيرا فى إيقاظ طائفة منهم، غير معتمد على قدمة لهم فى المدنية، ولا على مكانة لهم فى المجموعة العالمية، ولكن بين لهم أنهم على ضلال مبين، وأنهم إن لم يقبلوا الإسلام دينا ليصلحوا به حياتهم، جوزوا على ذلك جزاء نكرا فى عالم وراء هذا العالم.

فكان أثر دخولهم فى الإسلام، وقيامهم بتعاليمه، حدوث هذه النهضة مباشرة. فالذى يسلم به العقل أن كل ما حدث لهم من الرقى جاءهم بتأثير مبادئ هذا الدين فيهم لا غير.

هذا القول قد يعتبر غريبا عند أمثال الدكتور جوستاف لوبون من الأجانب، ولكنهم لو ألقوا نظرة على كتاب الإسلام، وتأملوا فيما جاء فيه من المثل العليا، ومنها ما نحن بصدده من الاستماع إلى كل قول، والأخذ بأحسن ما فيه ولو جاء به مشرك، أدركوا أن هذا الدين يشتمل على جميع أصول الارتقاء الأدبى والمادى على أكمل الوجوه وأعلقها بالنفس. تناولها أتباعه اعتقادا فأثرت فيهم تأثيرا لم تنل مثلها أية فلسفة فى العالم، وأقامتهم على سمت من الحياة يؤديهم إلى الغايات البعيدة تأدية آلية. وهى لم تؤثر هذا التأثير فى العرب الأقحاح عن الفرس والديلم والزنوج وغيرهم، مما يدل على وحدة المؤثر بصرف النظر عن الاستعداد الوراثى، والمؤهل الجنسى.

وفى نظرى أن هذه الناحية من تاريخ الإسلام يجب أن تكون موضوع دراسة علمية دقيقة. فإن الانقلاب الضخم الذى أحدثه الإسلام فى العالم من الجهتين المادية والأدبية، مما لا يجوز إغفاله. فهو كما يكشف عن العلل الحقيقية التى أحدثته. يفتح أمام الباحثين مجالا بسيكولوجيا من أعظم ما عهد إلى علم النفس بيان أسراره، وتعيين عوامله. فإن كل ما علل به هذا الحادث الجلل مما أملاه على الذين شرعوا فيه تعصبهم الدينى، أو هروبهم مما يؤدى إليه من صدق الرسالة التى تمت على يديه، مما لا يوفى حاجة الناس فى هذا العصر، ولا يثلج صدورهم. وإنى لا أشك فىأن هذه

الدراسة ستشغل بال العلماء فى يوم من الأيام، وسيكون لها أثر بالغ فى بيان حجة الإسلام وفى انتشاره فى الخافقين بخطى أوسع مما هى عليه الآن: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة فصلت: آية ٥٣].

* * *

المقال الثانى

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها، وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الإفادة الدينية، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم، وأصالة أصولهم، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود، لا تدعهم يشكون فى أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها. فإن ظهر أن كثيرا منهم لا يزالون يتحامون الجرى عليها، فسيضطرهم الترقى العلمى والفلسفى إلى الاعتراف بحقيتها، وإذ ذاك يلتقى الناس كافة فى حظيرة واحدة هى حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطرى والمعارف الممحصة.

أما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى، وتولوه بالزيادة والتمحيص، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية. فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من يدعى أنه ليس مدينا للإسلام من هذه الناحية.

قد استشهدنا على صحة هذه الدعاوى بجماهير من كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين. وآخر ما وصل إلينا عنهم فى هذا الباب كتاب حضارة العرب للعلامة الاجتماعى جوستاف لوبون وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ النابه محمد عادل زعيتر. ونرى أن نقتبس منه بعض ما قاله العلامة الاجتماعى المذكور فى هذا الشأن ليتدبره المسلمون، ويعرفوا أن ما قصروا فيه من بيان هذا الحق، قد قام به من منصفى الغربيين من لايمتون إليهم بأقل صلة

قال العلامة جوستاف لوبون تحت عنوان (تمدين العرب لأوربا - تأثير العرب فى الشرق والغرب):

«خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق والرومان إلخ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسى. إذا كان عظيما فيه، فإن تأثيره المدنى فيه كان ضعيفا للغاية.

«وما عجز الإغريق والفرس والرومان عنه، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه.

«وما وفق العرب له فى مصر اتفق لهم مثله فى كل بلد خفقت فوقه رايتهم كإفريقية (يريد تونس) وسورية وفارس. وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التى لم يدخلوها إلا عابرى سبيل وقد كان لهم تأثير واضح فى بلاد الصين التى لم يزوروها إلا تجارا.

«ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب، جميع الأمم التى كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم، ولو حينا من الزمن.

«ولم يتجل تأثير العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدها، بـل كان لهم الأثر البالغ فى ثقافتـه العلمية أيضا. وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسـما كبيرا من معارفهم العلمية التى عدها الأوربيون على غير حق من أصل هندى أو صينى.

«ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهنود عنهم، وقد رأينا فى فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية، وأن الفلكى الصينى الشهير كوشو كينغ تناول فى سنة (١٢٨٠) م، رسالة ابن يونس فى الفلك وأذاعها فى بلاد الصين، وأن الطب العربى انتشر فى الصين فى سنة (١٢١٥) م، وقتما غزاها كوبلاى.

«نثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم كتأثيرهم فى الشرق، وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتها.

«ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها. فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية فى أوج نضارتها، رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة.

«مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد، فلما ظهر أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم، ولوا وجوهم شطر العرب.

«ولم تكن الحروب الصليبية سببا فى إدخال العلوم إلى أوربا كما يظن على العموم، وإنما دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا، ففى سنة (١١٣٠) م، أنشئ فى طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب. وقد كللت أعمال ذلك المكتب بالنجاح فبدأ للغرب عالم جديد، ولم يتوان الغرب فى أمر تلك الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد. ولم يقتصر فى تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبى القاسم

وابن سينا وابن رشد إلخ وحدها إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية، ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس. وقد روى الدكتور (لوكلير) فى كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب، ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان فى الحقيقة إلا من ترجماتها العربية. وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها. ككتاب أبولونيوس فى المخروطات. وكتاب جالينوس فى الأمراض السارية. وكتاب أرسطو فى الحجارة إلخ. وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة. لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة. قال المسيو (ليبرى): لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون:

«إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا فى القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان، حتى فى القسطنطينية. ولم يكن فى العالم فى ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها. فإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التى لا تزل موضوع جدال جربرت الذى صار بابا فى سنة ٩٩٩م ملقبا بسلفستر الثانى، ولما أراد هذا البابا أن ينشر فى أوربا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان.

«وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون. ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر. فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيلييه فى أواخر القرن الماضى».

ثم قال الدكتور جوستاف لوبون:

«وإذا كان تأثير العرب عظيما فى أنحاء أوربا التى لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك فى البلاد التى خضعت لسلطانهم كبلاد إسبانيا.. ولن يرى الباحث مثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم فى أمة أخرى، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال».

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوربيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق فى أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة.ونحن إن نشرناه هنا كما نشرنا عشرات من مثله فى تقدير تأثير أوائلنا فى أحوال العالم الأدبية والمدنية، فما ذلك إلا لندلل على أن فى الإسلام روحا تبعث الآحاد والجماعات إلى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها فى التعاليم البشرية. ولنا من وراء ذلك مطلب أكبر قيمة من هذا، وهو أن نستفيد منه لنستعيد مجدنا القديم ومكانتنا العالمية الماضية، وهو أمر لا سبيل إليه إلا بعملنا المتواصل لتجلية الإسلام فى صورته الحقيقية باجتثاث جذور البدع المتفشية فى جميع الشعوب الإسلامية، وقطع دابر الآراء الضالة فى الدين والدنيا والآداب العامة والخاصة، والعمل فى دؤوب ومضاء على توهين أصول الفلسفة المادية التى تعتبر أقوى عدو للأديان فى العصر الحاضر، ومن الله التوفيق.

المقال الثالث

إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قد وفوا، وهم يؤسسون الإمبراطورية الإسلامية، بجميع ما وعدوا به العالم من المساواة والعدل والرحمة. وبأنهم رفعوا شأن كل أمة افتتحوا بلادها درجات عما كانت عليه، وأنهم تأثموا عن ارتكاب مثل ما ارتكبته الأمم الفاتحة التى سبقتهم من إذلال المقهورين وسلب أموالهم، واضطهادهم ليدخلوهم فى ملتهم.

وأحسن ما نقدمه للقراء دليلا على كل ما قلناه شهادة عالم من أشهر علماء أوربا هو الدكتور جوستاف لوبون. قال فى كتابه (حضارة العرب)[1]:

«كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويقهروهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى أنحاء العالم. ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت بعد، غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرا، ولكن الخلفاء السابقين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة، أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا، فعاملوا أهل سورية ومصر وأسبانيا، وكل قطر استولوا عليه، بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم، وحفظ الأمن بينهم. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب.

(١) مقتبس من ترجمة كتاب حضارة العرب إلى العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر من أفاضل نابلس (فلسطين).

«ورحمة العرب الفاتحين وتسامحهم، كانا من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم، وإن أنكر ذلك المؤرخون. ونعد مصر أوضح دليل على ذلك، فقد انتحلت مصر ماجاءها به العرب، وحافظت عليه، ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يحملوها ما أتوها به».

هذه شهادة قيمة من عالم أجنبى، وليس هو بفذ فى أداء هذه الشهادة. فقد سبقه وتأخر عنه جمع غفير من أعلام التاريخ، وليس لنا من ملاحظة على ما قاله الدكتور (جوستاف لوبون) إلا ما قاله من أن هذا التسامح الدينى كان بفضل عبقرية الخلفاء الراشدين، وهو فى الواقع من حكمة الشريعة الإسلامية نفسها، فإنها لم تفرض نشر الإسلام بالقوة إلا على مشركى العرب، وحرمته فى حق أهل الكتب السماوية والمشركين من غير العرب. فإذا خضع هؤلاء لدفع الجزية فلا سلطان بعد ذلك لأحد عليهم. والجزية كما يقول الأستاذ (جوستاف لوبون) قدر قليل من المال يعفى منها النساء والأطفال ورجال الدين والعجزة.

ونحن نورد هنا مذاهب أئمتنا فى هذا الموضوع الخطير فنقول:

تقرر فى مذهب أبى حنيفة أن الجزية تقبل من سائر الكفرة إلا مشركى العرب.

وذهب الشافعى إلى أنها لا تقبل إلا من المجوس وأهل الكتاب دون سائر الكفرة.

أما مالك فقال إنها تقبل من سائر الكفرة إلا المرتدين. ويؤيد هذا المذهب أن الجزية لم تفرض إلا بعد أن أسلمت دارة العرب، ولم يبق فيها مشرك، فلم يأخذها النبى صلى الله عليه وسلم منهم لعدم وجود من تؤخذ منه، لا لأنها لا تجوز فى حقهم. وفيما دونه أئمة الحديث من أقواله يدل على ذلك، ففى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض قواده: «**إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: الإسلام أو الجزية أو القتال**».

وما وصل إلينا من قول النبى صلى الله عليه وسلم: «قاتلوا الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» فقد كان ذلك فى حق العرب قبل نزول فرض الجزية.

هذا ما فهمه أئمة الدين من هذا الموضوع، ولسنا نلح فى بيانه لنسلب من المسلمين الأولين صفة العبقرية التى اعترف لهم بها الدكتور جوستاف لوبون، ولكن لأن الصحيح هو ما ذكرناه.

ونحن إنما نتشدد فى هذا الأمر الذى قد يرى كثير من القراء أنه مما يحسن التسامح فيه، وخاصة لكاتب أجنبى أنصف الإسلام والمسلمين إلى حد لم يبلغ إليه غيره من كتاب الفرنجة، إنما نتشدد معه لأنه يرى أن القبائل العربية قبل الإسلام كانت متمتعة بكل الصفات الأدبية والاجتماعية التى تؤهلها لإحداث ما أحدثته من الانقلابات الخطيرة فى العالم، وأن ما أتاها به الإسلام ينحصر فى توحيد قبائلها، وتوجيه جهودها، وأن كل ما ظهروا به مما بهر العالم من ترقية العلوم والصناعات، وما بلغوا إليه من الشأو البعيد فى الكمالات، إنما كانت

البواعث إليه كامنة فيهم، وإنما منع من ظهورها فيهم ما كانوا عليه من الفوضى والانقسام.

نعم إنه ليشق علينا أن نقف موقف المعارضة من عالم ختم كتابه العظيم (حضارة العرب) بهذه العبارة التى لم يقلها عالم من المتأخرين فى دين من الأديان. قال:

«لقد تم الكتاب، فلنلخصه فى بضع كلمات فنقول:

«إن الأمم التى فاقت العرب تمدنا، قليلة إلى الغاية، وإن ما حققه العرب فى وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة، وإن العرب أقاموا دينا من أقوى الأديان التى سادت العالم ولا يزال الناس يخضعون لها، وإنهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التى عرفها التاريخ، وإنهم مدنوا أوربا ثقافة وأخلاقا، وإن الأمم التى سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة، وإنه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالا بارزا لتأثير العوامل التى تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها».

قلنا يشق علينا أن نقف موقف المعارضة من كاتب مثل هذا الكلام، ولكن مصلحة الدين الذى ندين به، بل مصلحة العلم نفسه تقتضيه، فإنه إن كان أنصف المسلمين باعتبارهم أمة، فإنه ظلم الإسلام باعتباره دينا. فإنه فى اليوم الذى يثبت فيه أن لقيام الدولة الإسلامية وتبسطها فى الأرض، وتوسعها فى العلم، وتداركها للعالم من التدهور، ولمدنيته من الانحلال والدثور، عللا طبيعية، وأسبابا مادية، تسقط أعظم حجة للمسلمين فى إلهية الدين الإسلامى، فإن معجزته الخالدة، وآيته الكبرى، هى أنه أوجد أمة من العدم، وأنه ربى نفوسها فى نحو ربع قرن، تربية لم تبلغ شأوها العلل الطبيعية فى قرون كثيرة، ثم دفع بها فى مجال

الحياة الاجتماعية فبلغت فيه درجة الزعامة فى كل شأن من شئون الحياة الإنسانية، ولا يزال فيها من قوة الروح، وسمو المبادئ، وعوامل التطور، ما يدفعها لاسترداد مكانتها الأولى بين أرقى الأمم المعاصرة لو عاودت العمل بما رسمته لها شريعتها من الأصول الأولية.

الدكتور (جوستاف لوبون) معذور فى سلوكه هذا المسلك، لأنه كأكبر مفكرى القرن التاسع عشر متشبع من الفلسفة المادية التى لا تذهب إلى وراء العالم المحسوس فى سبيل تعليل أية ظاهرة من ظواهر الوجود المادى، فلا يستطيع، وهذه حالته النفسية، أن يبحث فى شىء إلا تحت هذا البصيص من ضوء الفلسفة المادية.

وقد تكلف أشياع هذه الفلسفة فى تعليل وجود السموات والأرض وجميع الكائنات التى تقع تحت سلطان المشاعر، حتى العقل نفسه، بعلل طبيعية، كثير منها يوجب الأسف من ضعف العقلية الإنسانية. فإذا سألت أحدهم، كيف وجدت الإلهامات التى عليها حياة الحشرات الضعيفة، حتى هديت إلى أعمالها اليومية، ووسائلها الحيوية؟ أجابك بأنها تعودتها رويدا رويدا فرسخت فيها وصارت طبيعة لها. فإن قلت له، وكيف أمكنها أن تعيش وتضع بويضاتها وتحيطها بما يحفظ صغارها متى خرجت منها قبل أن تتعود وسائل حفظها؟ سكت ولم يحر جوابا. وإذا سألته لم طالت أيدى الزرافة وقصرت رجلاها، وامتدت عنقها؟ قال لأنها لما احتاجت لأكل أوراق الأشجار أخذت تشرئب، وعلى طول الزمن حدث لها ما رأيت؟ فإن قلت له ولم احتاجت لأكل الأوراق العليا دون سائر الحيوانات، وكيف عاشت قبل أن تطول يداها وعنقها صمت ولم يتكلم.

وهذا الدكتور (جوستاف لوبون) يجرى على هذه السنة فى تعليل التطور الفجائى للقبائل العربية، فإذا وجب عليه تفسير نهضة قامت بها غير منتظرة بزت فى سرعة حدوثها وفى جلائل آثارها، وفى اتساع رقعتها كل ما سبقتها من أمثالها، عمد إلى انتحال كل علة كونية إن كانت لا توفى المقام حقه، إلا العلل الربانية، ذلك لأنه كالعدد الكثير من إخوانه لا يؤمن بما فوق الطبيعة من الفواعل العلوية.

ولما كنا بسبيل وضع سيرة للنبى صلى الله عليه وسلم، وقد ترجم كتاب الدكتور جوستاف لوبون إلى العربية، فنرى من مكملاتها أن نناقشه الحساب فيما ذهب إليه من تعليلاته الاجتماعية، تفاديا منه أن نعرض أكثر ما قررناه فيها للنقد. فإن كتاب الدكتور لوبون سوف ينشر بين المسلمين ويقرأونه، وسوف يفتن كثير منهم ببهرجه العلمى، فيرون فى البعثة المحمدية وفى آثارها العالمية رأيا ماديا بحتا، فتفقد قضية الإسلام أقوى مستنداتها، ويخرج قراؤه من كل ذلك بشبهة مستعصية لا مناص منها تتعلق بشخصية النبى صلى الله عليه وسلم.

لذلك رأينا أن نتعقب نظريات الدكتور جوستاف لوبون فى كل ما ذكره عن العرب الجاهلين وقبائلهم وعاداتهم، وما زعمه من تالد مدنيتهم، متتبعين كل ما أتى به فى هذا الصدد من ظنون وخيالات ليصل من هذا الطريق إلى تعليل كل ما ظهر على أيديهم بعد إسلامهم من فتح الأقطار القاصية، وحكم المقهورين بالعدالة، والتقصى عن ينابيع المعارف، وأخذهم بأوفر نصيب منها، والعمل على نشرها وترقيتها إلخ، مما خلد ذكرهم فى تاريخ الإنسانية، وكان له أثر كبير فى نزول أعداء الإسلام عن آرائهم السابقة فيه.

فهذا الفيض الأدبى كله الذى نعزوه نحن إلى بركات الإسلام، ونعتبره من الدلائل الساطعة على أن قيم الوجود جعل لخاتم رسله آية عامة خالدة، يحوله الدكتور جوستاف لوبون إلى ما كانت عليه النفس العربية من التطور الموروث، فينقلب ذلك، بحسن نية منه، إلى أكبر شبهة! لذلك نعد قراءنا ببحث هذا الموضوع بحثا يتفق وخطره، والله يهدينا سواء السبيل.

* * *

المقال الرابع

الدكتور جوستاف لوبون كأكثر العلماء الذين نبغوا فى القرن التاسع عشر لا يعترف بوجود حكمة علوية تدبر الكون وتوجه نواميسه، فهو مضطر لتعليل كل ظاهرة وجودية أو حادثة اجتماعية بعلة طبيعية. ولما اتفق له أن يضع كتابا فى الحضارة العربية، واقتضى موضوعه هذا أن ينظر فى تاريخ العرب، وفيما آلوا إليه إلى عهد ظهور الديانة المحمدية، ثم إلى ما أفضت إليه الأحوال من توحد القبائل العربية، وتأسيس الإمبراطورية الإسلامية، وما قامت به من احترام حقوق المقهورين، ومعاملتهم بالعطف والإنصاف، وتلمس العلم من جميع مظانه، والتوسع فيه إلى حد ترجمة كتبه المهملة، مما أحدث حركة فكرية لم يعرفها العالم قبل الإسلام، حتى صارت الأمم كافة عيالا على المسلمين فى الناحيتين المدنية والثقافية، لما اتفق هذا كله للدكتور جوستاف لوبون، وأفاض فيه إفاضة لم يسبقه إليها غيره، لم يسعه إلا أن يشهد بأن ما هو بسبيله تطور لم يسجله التاريخ لأية أمة سبقت المسلمين فى الوجود، ناهيك أن أوربا اضطرت أن تأتم بهم فى علمها وفلسفتها وصناعتها ثمانية قرون متوالية.

كل هذا وقف الدكتور جوستاف لوبون أمام أمور جلل لا يصح أن تروى رواية دون أن يعلل حدوثها بعلل يقبلها العلم، وترتضيها الفلسفة. (أولها) تألف أمة قوية الترابط فى مدة وجيزة من قبائل عديدة توارثت الأحقاد منذ قرون كثيرة. (ثانيها) اندفاع هذه الأمة الحديثة فى الفتوح

حتى أسست إمبراطورية أكبر من إمبراطورية الرومان فى ثمانين سنة. (ثالثها) إقامة حكومة مركزية حكمت مقهوريها بعدل وإنصاف لم تره تلك الشعوب من حكومتها الوطنية. (رابعها) تهافت المسلمين على طلب العلم والأخذ بالمدنية الفاضلة حتى أصبحت لهم الزعامة العالمية.

عرض الدكتور جوستاف لوبون لتعليل كل هذه الأحداث الخطيرة على أسلوبه العلمى.

فلم يعترف لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو روح كل هذه النهضات الأدبية والمادية، بنبوة، ولا للقرآن بقدسية، على حين أن هذه الانتقالات الفجائية تعتبر عند المسلمين فى درجة الأدلة المحسوسة على صحة هذه النبوة، ولو كان وفّى (الدكتور لوبون) المقام حقه، من الناحية العلمية لكنا التمسنا على صحة هذه النبوة أدلة أخرى، ولكنه لم يوفه حقه، بل تسامح كثيرا فى قبول آراء لم يقم عليها دليل ليجعل لتعليلاته صبغة علمية.

ولما كان هذا الأمر فى نظرنا جد خطير، فقد رأينا ان نناقش الدكتور جوستاف لوبون فيما استند عليه فى تعليلاته نجاح الدعوة الإسلامية والإمبراطورية العربية بمحض العلل المادية.

نجاح الدعوة الإسلامية:

قال الفيلسوف الفرنسى الكبير (إرنست رنان) فى كتابه تاريخ اللغات السامية:

«لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسى والثقافى والدينى قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذى صار به العرب أمة

فاتحة مبدعة، ولم يكن لبلاد العرب شأن فى القرون القديمة حين كانت غارقة فى دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد».

نقل هذا القول الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) وعقب عليه بقوله:

«عندنا أن هذا الرأى فاسد، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ، فلا يكون ذلك إلا نتيجة نضج بطىء، ولا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدريج، ولا تبلغ درجة التطور العالمية التى تبدو للعيان إلا بعد الصعود فى درجات أخرى.

«وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا إن هذه الحضارة هى ثمرة ماض طويل، وإن جهلنا الماضى الطويل لا يعنى عدم وجوده.

ثم قال بعد ذلك: «وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس. والعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن، أن يقيموا دولة عظيمة، ويبدعوا حضارة عالية جديدة، هم لا ريب من ذوى القرائح التى لا تتم إلا بتوالى الوراثة، وبثقافة سابقة مستمرة. فبالعرب لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأستراليين، قد أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التى ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون فى آسيا وأوربا».

ونحن فى مناقشتنا للدكتور جوستاف لوبون ننبه القراء قبل كل شىء إلى خطأ جسيم وقع فيه، لو كان تنبه إليه لاتخذ لتحقيقاته طريقا غير الذى تورط فيه. ذلك أن الدعوة الإسلامية لم توجه للعرب

خاصة، ولكنها وجهت للإنسانية عامة، كما جاء فى الكتاب الكريم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة سبأ: آية ٢٨] وقد عمم رسول الله الدعوة إليها، وأمر أتباعه بأن يعلنوا ذلك للناس كافة، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. فدخل فيه فى سنين معدودة، طواعية بدون إكراه، ما أربى على عدد العرب مرات كثيرة، وعددهم اليوم يزيد على عدد العرب أربعين ضعفا.

فالأمة الإسلامية أمة عالمية بطبيعة تكوينها لا أمة عربية فقط، وموطنها العالم كله لا بقعة واحدة منه. فليس من العجيب أن تبز جميع الأمم فى سمو محصولها وسرعة إنتاجها، وإنما العجيب الذى كان يجب أن يستوقف نظر الدكتور جوستاف لوبون، مجىء هذا الدين على هذا النحو العالمى، وحدوثه فى بيئة لم تكن تعرف معنى الوحدة الإجتماعية حتى للجنس الواحد، فكان تولده هنالك ضربا من الطفرة التى أجمع العالم على استحالتها، وهذا محل الإعجاز فى عمل النبى صلى الله علية وسلم.

نعم غفل الدكتور جوستاف لوبون عن هذا الأمر الجلل، ولما حار فى تعليل سرعة قيام الحضارة الإسلامية وإمبراطوريتها، أخذ يكد ذهنه فى إعطاء الظنيات من الروايات التاريخية مالا تحتمله، من القوى التى تكمن فى نفسية الجماعات، ثم تتنبه بتأثير دعوة تسوقها للترقى، وغاب عنه أن الحضارة الإسلامية عمل عالمى ساهمت فيه جميع العبقريات البشرية بعد أن دخلت فى الإسلام وعملت كأعضاء فى جسم المجتمع الإسلامى.

إن الطابع العالمى فى هذا الدين ظاهر إلى حد لا يمكن إنكاره، بله إخفاءه، فهو جلى حتى فى علوم الدين نفسها. ذكر السخاوى فى شرح ألفية الحديث للإمام القرافى أن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) قال يوما للإمام الزهرى: من يسود أهل مكة قال: عطاء. قال بم سادهم قال الزهرى: سادهم بالديانة والرواية. قال هشام: نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له. ثم سأله الخليفة عن اليمن؟ فقال الزهرى: إمامهم طاووس. ثم سأله عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد، وكلما سمى رجلا كان هشام يسأله هل هو عربى أم مولى فكان الزهرى يجيبه بقوله: مولى، إلى أن أتى على ذكر النخعى فقال إنه عربى. فقال هشام: الآن فرجت عنى والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر!

وكان أقدم الفقهاء الذين أخذ عنهم المسلمون دينهم، والأمة مذاهبهم، غير من ذكرنا وهم الحسن، ومحمد بن سيرين، ومجاهد، وسليمان بن يسار، وزيد بن أسلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبى نجيح، وربيعة الرأى، وابن أبى الزناد، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، والأعمش، ووكيع، ووهب بن منبه إلخ إلخ كانوا من أجناس مختلفة ومنهم سود.

كان هذا فى الناحية الدينية وهى أشد النواحى إثارة للعصبية الجنسية، وأما فى العلوم بجميع فروعها فقد اشتركت فى إقامتها فى الأمة الإسلامية أشهر الأجناس العالمية، فكانت فى ذلك مثال الإخوة الإنسانية الصادقة، والزمالة العالمية المثالية. ومثل الدكتور جوستاف لوبون لا يجوز أن يجهل ذلك، فلا غرو إن جاءت الحضارة الإسلامية (طفرة) حاصلة على غاية الإبداع.

ولكن مجال الإعجاز، هو فى إقامة نظام دينى يصلح لجميع الأجناس البشرية، ويسمح لضروب العبقريات الإنسانية بالإشراف والازدهار فى ظل سلطانه الوطيد الأركان، على نحو لم يسبق له مثيل فى أى دور من الأدوار التاريخية. وبقاء هذا النظام مصدر ثقافة ومدنية للعالم أجمع ثمانية قرون متوالية.

هنا لا يعدم الخصم أن يجد ما يفسر به هذا الحادث الجلل تفسيرا عاديا، ولكن فى هذا الأمر شيئا يستعصى على كل تفسير، وهو أن هذا التطور الخطير، وعد الإسلام به أتباعه قبل حدوثه بعشرات من السنين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [سورة النور: آية ٥٥]

والمراد بخلافة الأرض أن يكونوا أصحاب الأمر والنهى فيها.

وهى منزلة عالية، لا تنالها الأمم عفوا، فلا بد من أن يتوافر فيها إلى جانب وفرة عددها بلوغها درجة رفيعة فى العلم والأخلاق ووسائل الحياة الراقية، مضافا إلى كل ذلك كفاية عقلية وحكمة واسعة. تصبح بها ذات وجود ممتاز بين الأمم تصلح معه أن تفرض إرادتها عليها ولو بطريقة غير مباشرة. وهذه الميزة الاجتماعية لا تنال إلا بعد أن يصبح للأمة نظام ثابت يطول عليها الأمد فى الجرى عليه فيصير لها شعارا، وكل هذه الشروط لا يتفق توافرها إلا من طريق الوراثة فى أجيال عديدة متعاقبة. فهلا يدهش الدكتور جوستاف لوبون وهو يخط بقلمه أن الأمة

الإسلامية بلغت فى ثمانين سنة مالم يبلغه الرومان فى ثمانية قرون وهل يمكن تعليل هذه السرعة بالعلل المعروفة وحدها دون أن تتولاها إرداة قيم الوجود نفسه؟!

نقول هذا ونحن عارفون بأننا إزاء قوم لا يقولون بنبى ولا نبوة، بل لا يقولون بوجود تدبير ما فى الوجود كله، وقد نشأ كل مافيه اتفاقا بغير مدبر، فهؤلاء أمة وحدهم، وهم يقلون كل يوم عددا بتأثير ما يتوالى فى العلم من أدلة على وجود عالم علوى يرب هذا العالم المادى ويدبره.

أما قصارى ما نستطيعه حيال هؤلاء فهو أن نكشف لهم المعضلات التى لا يستطاع حلها ببضعة الأصول الفلسفية التى حذقوا سردها إزاء كل غامضة من الغوامض الاجتماعية، راجين بهذا أن ندرأ عن أعلام النبوة المحمدية الشبهات التى يثيرها أمثال كتاب الدكتور لوبون.

* * *

المقال الخامس

ناقشنا الدكتور جوستاف لوبون فى آرائه التى مؤداها: أن الإسلام لم ينجح فى إقامة مدنيته العظيمة فى مدة وجيزة، إلا لأن العرب كانوا وارثين فى صميم كيانهم لميول قوية نحو المدنية، بسبب أن أسلافهم كانوا، فيما يرجحه، على درجة عالية من مدنية تبارى مدنية البابليين والآشوريين والمصريين القدماء. وكل ما أفادهم الإسلام فى هذا الباب هو أنه جمع بينهم بعد فرقه، وآخى بينهم بعد تعاد.

والآن نناقشه فى دعواه: أن العرب إبان البعثة المحمدية كانوا يتوثبون للحصول على توحيد آلهتهم، وأن سر قوة محمد كان فى عرفانه ذلك. فقد قال ما نصه الحرفى:

«وقد نشأ عن وحدة لغة العرب وحشر آلهتهم فى الكعبة، إمكان صهر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد.

والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد، كان قد حان، وهذا ما عرفه محمد، وفى الوجه الذى عرفه فيه سر قوته، وهو الذى لم يفكر قط فى إقامة دين جديد خلافا لما يتوهم البعض، وهو الذى أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله بانى الكعبة، أى إله إبراهيم الذى كان العرب يجلونه ويعظمونه.

«وعلائم اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة» وما حدث من الثور بالأوثان فى عهد قياصرة الرومان، حدث مثله فى بلاد العرب، حيث ضعفت المعتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها» أهـ.

ونحن نشرع فى مناقشة الدكتور جوستاف لوبون فى كل هذا فنقول:

يتخذ الدكتور من حشر العرب آلهتهم كلها فى الكعبة، علامة على ميلهم إلى توحيد عباداتهم، وتحويلها إلى عبادة إله واحد. وهذا خطأ منه كبير، فإن العرب لم يكونوا شاكين فى آلهتهم، فلم يؤثر عنهم أنهم تنازعوا فى هذا الموضوع، أو فضل بعضهم آلهتهم على آلهة بعضهم الآخر. ومثل هذا الصنف كان لا يمكن أن يخفى على المؤرخين لاسيما فى إبان الدعوة الإسلامية، بل كان القرآن الكريم ينوه به كما نوه بخلافات غيرهم من الأمم إظهارا لانحلال أديانهم.

فأصنام العرب كافة كانت محترمة لدى العرب كافة، وجمعها فى الكعبة يشعر بذلك بدليل محسوس، ولا يشعر قط، ما دام كل منها له اسم خاص وصورة خاصة، بأن المقصود من جمعها إلغاء عبادتها والانصراف إلى عبادة الله وحده. وقد بين الكتاب الكريم مقصودهم من عبادة هذه الآلهة فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: آية ٣] أى لأجل الشفاعة لهم عند الله، ويؤيده قوله تعالى عن لسانهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة يونس: آية ١٨].

وقد ذكر الكتاب الكريم أنهم كانوا شديدى الحرص على عبادة آلهتهم هذه فقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ

مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [سورة ص: آية ٤ ـ ٦].

فى هذه الآية نص صريح على أن العرب على عهد النبى صلى الله علية وسلم كانوا يعتبرون جعل الآلهة إلها واحدا من الأمور الموجبة للتعجب، لغرابته وبعده عن عقولهم، وزادت الآية هذه على ذلك دليلا محسوسا، وهو أن أحدا فى ذلك الزمان لم يكن يقول بتوحيد الآلهة. وهو قوله تعالى على لسانهم: «ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق» أى ما سمعنا أن أحدا قال مثل هذا القول فى الملة الآخرة، أى فى ديانتنا التى نحن عليها الآن فى عهدنا الأخير، وعقبوا ذلك بقولهم ما هذا إلا اختلاق.

قال الدكتور جوستاف لوبون: إن محمد «لم يفكر قط فى إقامة دين جديد، خلافا لما يتوهم البعض. وهو الذى أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله بانى الكعبة، أى إله إبراهيم الذى كان العرب يجلونه ويعظمونه».

وهنا أيضا نكرر للدكتور لوبون القول بإن العرب كانوا يعتقدون بإله إبراهيم والعالم كله، وما كانوا يعبدون تلك الآلهة إلا لتشفع لهم عند الله، فكانت مهمة النبى صلى الله عليه وسلم موجهة إلى إفراد الله بالألوهية، ومحو الوساطة بين الناس وبينه. ويتضح إيمانهم بالله الحق وبشمول قدرته، وجلال سلطانه، من الآيات التالية وهى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ

وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٨٤ - ٩٢].

فمهمة الإسلام فى بلاد العرب كانت لإزالة الإشراك مع الله، والمعنى المقصود من كلمة التوحيد هى نفى الشريك عنه كما صرح تعالى بذلك فى آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٦] وقال: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [سورة لقمان: آية ١٥].

هذا أساس الدعوة الإسلامية فى دورها الأول، وقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم للدعوة إلى التوحيد فى مكة، فلبث ثلاث عشرة سنة بين ظهرانى أنجب قبائل العرب وهى قريش، لم يدع وجها من وجوه التأثير عليهم إلا تذرع به، فبشر وأنذر، ورغب وروع، وضرب الأمثال، ودعا إلى النظر والتفكير، ولم يذر لونا من ألوان الإقناع إلا أتى به على ضروب شتى، وفى بيان يأخذ بالألباب، ويستولى على العقول، حتى وسموه بالشاعر والساحر. فلم يلب دعوته منهم إلا بضع عشرات فى مدى نحو ثمن قرن، فهل يعقل بعد ذلك أن الوقت كان قد آن، كما يقول الدكتور، إلى قبول عقيدة التوحيد، وأن محمدا قد أدرك ذلك وهو سر قوته؟!

وقال الدكتور جوستاف لوبون: «وما حدث من الثورة بالأوثان فى عهد قياصرة الرومان، حدث مثله فى بلاد العرب، حيث ضعفت المعتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها».

نقول: يشير الدكتور بهذا الكلام إلى ما حدث فى الدولة الرومانية فى عهد الإمبراطور قونستنتين فى القرن الثالث بعد الميلاد، وكان الدين الشائع فى ذلك العهد الوثنية الباحتة. واتفق أن الإمبراطور المذكور كان قد ربى على المسيحية، فلما آنس أن الدعوة المسيحية قد أثرت فى نفوس الناس، فاكتسب فى نحو ثلاثمائة سنة عددا منهم يمكن الاعتماد عليه فى إزالة الوثنية، وإحلال النصرانية محلها، أمر جيشه بهدم الهياكل الوثنية فى مملكته، وتحطيم أصنامها، وإقامة الديانة النصرانية على أنقاضها، وتم له ما أراد. فهل يرى الدكتور جوستاف لوبون أنه حدث فى البلاد العربية مثل ذلك.

نعم إذا أراد بذلك ما حدث من النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أثرت دعوته فى أهل يثرب وغيرها من القبائل، وبعد أن تم له فتح مكة، وأصبح لا آمرا ولا ناهيا فى بلاد العرب غيره؛ أى بعد أن جاهد وراء هذه الغاية ثلاثا وعشرين سنة حدثت فى أثنائها وقائع دموية، ومنازعات تعرض فيه المسلمون لأخطار شديدة.

ولكن القارئ لكلام الدكتور جوستاف لوبون يفهم منه أن العرب قبل عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان ثاب إليهم رشدهم، فبرموا بالأصنام فثاروا عليها كما ثار الرومانيون وحطموها تحطيما، فماذا يكون قد بقى من الجهاد فى هذه السبيل ليقوم به محمد.

إن كان هذا ما يريده الدكتور لوبون فالتاريخ لا يؤيده، ومثل هذا الكيل الجزاف من الأقوال يضعف من الثقة بتأكيداته، ويجعل القارئ

يحتاط للأخذ بشيء منها ولاسيما إذا كان رجما بالغيب أو تظنيا. وليس من عدة الباحث القوية أن يلقى بالأقوال إلقاء على هذا النحو، ليرجح تعليلا يرمى إلى الاعتماد عليه فى أمور جلل كالتى نحن بصددها.

أقول هذا وأنا مقدر عذر الدكتور جوستاف لوبون فى هذا التعسف، فإن رجلا لا يعتقد بوجود قدرة إلهية بيدها تصريف العقول والقلوب، وإحداث أمور خارقة للمجريات الطبيعية، لا يستطيع أن يسيغ عقله أن رجلا يقوم فى أمة عريقة فى الجاهلية والوثنية فينجح فى أن يحولها فى ثلاث وعشرين سنة، عن عقيدتها التى توارثها عشرات من الأجيال، إلى عقيدة هى المثل الأعلى للتوحيد الخالص والتنزيه المطلق. فمثل هذا الباحث المادى يضطر أن يتلمس كل ما يمكن تلمسه من الأسباب، ليسوغ لنفسه إمكان حدوث هذا الأمر الجلل فى مدة لا تسمح بحدوث مثله إلا فى أجيال كثيرة.

إن مثل الدكتور جوستاف لوبون يدرك أن رجلا واحدا لا يستطيع أن يحول أمة برمتها عن عادة سخيفة أجمع آحادها على سخافتها، وذاقوا الويلات فى الإبقاء عليها، فما ظنك بعقيدة دينية جمدوا عليها قرونا متعاقبة، ورسخت فى عقولهم، واطمأنت إليها قلوبهم، وقامت عليها عاداتهم وتقاليدهم، وسمحت نفوسهم بأن يبذلوا فى سبيل تأييدها أرواحهم وأموالهم.

فماذا تريد أن يفعل الدكتور جوستاف لوبون حيال هذا التطور الدينى المفاجئ غير تصيد العلل من هنا وهناك، وتطلّب الأسباب من كل قبيل، ليجعل هذا التحول طبيعيا معقولا، وهو يؤلف كتابا يريد به أن ينال إعجاب القارئين وإكبارهم؟!.

ولكن مثل هذا الوهن فى التعليل إن ساغ لدى الذين لا يهمهم أمر الإسلام ولا أمر النبى الذى دعا إليه، فإنه لا يمكن أن يسوغ لدى الأمة التى يعنيها أمرهما.

فإن كانت روح الجماعات القائمة اليوم قد اعتادت أن تجد إزاء كل انتقال اجتماعى علة أو عللا مادية تفسر حصوله، فلا يجوز، مسايرة لهذه الروح، أن نعمى عن التأمل فى حوادث تعلو عن متناول العلل الطبيعية، مثل هذا الأمر الجلل الذى نحن بسبيله، ويجب علينا أن نقف بالمرصاد لكل تطرف يحدث من أى متعسف مهما كانت درجته العلمية

* * *

المقال السادس

يقـول الدكتـور جوسـتاف لوبون فـى كتابه (حضـارة العرب) فى الصفحـة ١١٠ منـه: «إن علائم اتجـاه العرب أمام ظهـور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة» وقد عد من هذه العلامات حشر جميع آلهتهم فى الكعبة. وقد بينا رأينا فى هذا الأمر فيما مضى.

اكتفى الدكتور لوبون بهذا القول المجمل، ولم يجئ بشىء من تلك العلائم، وهى من أهم ما كان يجب الإتيان به تعليلا لحدث جلل، ليس له شبيه فى تاريخ الإنسانية، فلم يسمع أن قبائل كانت على أشد ما يكون من التنابذ والتطاحن، اجتمعت على هيئة أمة فى ثلاث وعشرين سنة، وأية أمة!!. أمة لم يعهد لقوة ترابط آحادها، وشدة تماسك طبقاتها، ولا لوحدة وجهتها وغايتها، نظير فى أمم العالم أجمع.

يعرف الدكتور جوستاف لوبون، باعتبار أنه عالم اجتماعى، العلائم التى تسبق توحد القبائل، وأن من أعظمها تأثيرا زوال الأسباب التى أوجبت ذلك التعدد، وأن من أهم تلك الأسباب نشوء حاجات ماسة إلى التكافل والتعاضد، كحلول قوم أقوياء بين تلك القبائل يعملون على استعبادها وتسخيرها لإرادتهم، واستغلال قواها لمصالحهم، فعند ذاك يدفعها ناموس الدفاع عن الذات إلى توحيد صفوفها، واستجماع قواها، للتخلص من هذا الشر المستطير، أو على القليل لصد مطامعهم فيها.

أو حدوث حوادث طبيعية من سيول عَرِمة، أو انقلابات جيولوجية، تجعل حياتها فى خطر، إذا لم تقابلها متضامة متضامنة.

أو طروء تطور اقتصادى يفقد الحياة القبيلية مزيتها، فتتلاشى مميزاتها رويدا رويدا، فتنقلب القبائل إلى شعب واحد، فى مدى أجيال متعاقبة، لاطفرة، كما حدث للقبائل العربية، على عهد النبى صلى الله عليه وسلم.

فهل حدث فى البلاد العربية شىء من هذه الأسباب يمكن أن يعلل هذا الانتقال السريع المدهش، من الحالة القبيلية، إلى الحالة الشعبية؟.

يقول الدكتور جوستاف لوبون فى صفحة (١١٧) من كتابة «حضارة العرب»:

«وقد ترك النبى مكة حين أضحى غير قادر على الدفاع، فذهب إلى الطائف القريبة من أم القرى، فلم يصغ أهلوها إلى دعوته، فاضطر إلى العودة. ثم قال:

«ولم يلبث الأمر أن تبدل. فتبسم الزمن لمحمد، فقد اغتنم محمد موسم الحج فدعا إلى دينه أناسا من اليمن التى كانت تنظر إلى مكة بعين الغيرة، والتى كانت تنتظر ظهور نبى،فاستهواهم حديث النبى، فاعتقدوا أنه هو النبى المنتظر، فحدثوا بذلك أهل يثرب التى كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضا، فجاءه من هؤلاء رجال كثيرون. ليستمعوا إليه. فلم يأمرهم بغير الإيمان بالله ورسوله. وباليوم الآخر والحساب، وبالثواب والعقاب، وبالقضاء والقدر، مع الصلاة والطهارة والصدق، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فآمنوا به وصدقوه وبايعوه، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه». أ.هـ

نقول كل ما ذكره الدكتور جوستاف لوبون هنا صحيح، وكان يجب عليه أن يسير فى أمر توحد القبائل العربية سيرًا منطقيا، فيجعل أساسه إيمان قبيلتى الأوس والخزرج، وهما سكان يثرب، برسالة النبى صلى الله عليه وسلم، ويُرى قراءه فى حدوث هذ الأمر سببا صحيحا لتوحد القبائل العربية، وهو قيام دين أخذت به قبيلتان، فألفتا معا نواة للاجتماع جذبت إليها سائر القبائل، واحدة بعد أخرى، حتى تم توحدها فى مدى نحو عشر سنين بعد تاريخ الهجرة. فلو كان سلك هذا المسلك العلمى، للاحت له جميع وجوه العظمة فى قيام الإسلام، واستحالته، فى وقت لا يكفى لمثله، إلى قوة عظيمة لا تغالب، لم تلبث أن اندفعت إلى خارج بلادها، وأحدثت فى العالم أحداثا لا يمكن تفسيرها تفسيرا طبيعيا معقولا إلا إذا ضِيف إليها عامل فوق عوامل الطبيعة المجردة، لأن اطراد هذا الأمر وبلوغه أقصى مداه، يشعر بأكثر مما يعطيه العلم فى هذا الانقلاب الذى لا شبيه له فى تاريخ البشر.

لو كان فعل هذا لما اضطر للحوم حول الأباطيل التى ذكرها مثل قوله إن «علائم اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة» ولم يذكر من هذه العلائم واحدة غير ما قاله من ثورة العرب بأصنامهم، وهو مالم يحدث لا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا قبله كما بينا ذلك فى المقال السابق، ولكنه حدث بأمره حين تم إسلام العرب.

ألا يكون من البديهى الذى لا يتمارى فيه اثنان أن شعور القبائل العربية بضرورة الوحدة الدينية والسياسية لها، لو كان له وجود، كان

يجب أن يصل إلى أبعد مداه بعد ذلك الحادث الجلل الذى سيحل عليها التخاذل فى أشنع مظاهره بغارة أبرهة على مكة سنة ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم لهدم الكعبة فقد قطع جيش أبرهة مئات من الأميال فى صميم البلاد العربية قاصدا تحطيم البيت الحرام، وهو محج جميع القبائل العربية، وكانوا قد جعلوه موئلا لجميع أصنامهم، فلم تثر فيهم هذه الإهانة أقل ميل للاجتماع، فتركوه يجتاز النجاد والوهاد حتى وصل إلى مكة، فما كان من أهلها إلا أن التجأوا إلى الجبال هربا من بطشه، ولولا أن الله شغله بكارثة لم تكن فى حسبانه، لم يتمكن معها من إتمام مقصده، لتم له ما أراد. أما كانت هذه الحادثة كافية فى إشعار العرب بضرورة الاجتماع لتكوين وحدة دينية وسياسية تصلح لحماية ذمارهم، وصيانة ديارهم. فماذا كان من أثرها فيهم. بقاؤهم على ماهم عليه من التعادى والتناحر. والتفرق والتدابر! ولما أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يدعوهم إلى التآلف والتحاب، والأخذ فى الدين والدنيا بأوثق الأسباب. كذبوه وسخروا منه، وبالغوا فى التعجب من دعوته، ورموه بشتى التهم، حتى وصموه بالجنون! ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [سورة الحجر: آية ٦].

كل هذا وقريش تعتبر أنجب القبائل العربية، وأفقهها فى الأمور الدنيوية. فما ظنك بغيرها ممن لم يروا غير أرضهم وسمائهم، ولم يعاشروا غير إبلهم وشائهم.

يقول الدكتور جوستاف لوبون: إن «علائم اتجاه العرب إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة». فهذه العلائم التى أجملها الدكتور لا يمكن أن تعدو ما جرت به العادة بين الجماعات من تطوع أفراد بالدعوة إلى توحيد الصفوف، وبيان فوائد هذا التوحيد من بطلان الحروب، وانتشار الأمن بين الربوع، وما فى الاجتماع من بركات فى الإيراد والاستيراد، وفى تحرير الشعب من ربقة الاستعباد الخ الخ، وكانت تبقى أخبار تلك المحاولات، وتخلد أسماء الذين قاموا بها، وتروى ما كانوا يلقونه من الخطب، وما ألفوه من المؤتمرات، فى أسواق العرب المشهورة.

نعم إن الرواة الذين ارتادوا البلاد العربية، وجلسوا خلال ديارهم بعد ظهور الإسلام، لرواية اللغة وتصحيح ألفاظها. وجمع ما يمكن جمعه من أشعار الجاهليين وأخبارهم، لم يأتونا بشىء عن آحاد كانوا يقومون بالدعوة لهذا التوحيد الدينى والاجتماعى، ولم يقفوا على أثر يدل على شىء مما يتعلق بهذا التطور، فهل لو كان هنالك شىء من هذا القبيل، أكان يخفى على هؤلاء الرواة، أو على العرب أنفسهم الذين قبلوا الدخول فى الإسلام.

لقد حدثونا عن الجاهلية وعن حوادث حدثت بين الأفراد والجماعات، وبالغوا فى ذلك وتباروا فيه حتى جاء أكثره خارجا عن المعقول، فهل كانوا يصمتون لو كانوا وجدوا فيما سمعوه أثارة مما يدعيه الدكتور جوستاف لوبون، من محاولات قام بها الجاهليون فى سبيل توحيد القبائل وتوحيد آلهتها.

أما ما هو أصدق شاهد على حالة الجاهليين قبل الإسلام، فهو القرآن، وقد جاء فيه قوله تعالى حاكيا قول الجاهليين: ﴿ أَجَعَلَ

ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة ص: آية ٥-٧].

قلنا فى المقال السابق إن الدكتور جوستاف باعتبار أنه لا يقول بعامل فى الوجود غير النواميس الطبيعية، يعذر فى تلمسه الأسباب من هنا وهناك لتعليل نهوض الأمة العربية هذا النهوض الفجائى بسبب خارق للعادة، ولكنا من ناحيتنا، نحن الذين نعتقد بأسباب علوية فوق الأسباب العادية، لا نستطيع أن نغفل نقد تأكيدات الدكتور جوستاف لوبون، وعدم رد الأمور إلى أسبابها الحقيقة.

وإذا كان مثل الدكتور جوستاف فى سعة أفقه العلمى بأسرار الاجتماع، يرتكب مثل هذه الوسيلة الضعيفة، ويلجأ الى التحسس من أوهى الظنيات، ليعلل بها أعظم حادث اجتماعى دينى باعترافه هو نفسه، كان هذا من أدلة الأدلة على أنه لم يهتد إلى ما يعلل به هذا الحدث الخطير من المقررات التى تثلج عليها الصدور، وتطمئن إليها النفوس، وليس هذا العجز منه بالشئ القليل.

وإذا كان الدكتور جوستاف لوبون قد سلك فى تحرى أسباب نهوض المسلمين هذا المسلك المادى، وقد عرفنا عذره فيه. فإنه لم يضن بالإشادة بأعمال النبى صلى الله عليه وسلم، وذهب فى تقديرها مذهب العلماء المنصفين. فقد قال فى صفحة (١٢٧) من كتابه (حضارة العرب):

«والأمر مهما يكن، فإن مما لا ريب فيه أن محمدا أصاب فى بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التى ظهرت قبل الإسلام. ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك لا نرى حدًا لفضل محمد على العرب»

نقول ولا لفضله على أوربا وآسيا، فقد قال هو نفسه ما نصه فى صفحة ٩٨:

«قد أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التى ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون فى آسيا وأوربا».

ونقل عن الأستاذ ليبرى قوله: «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون».

وقال هو نفسه فى صفحة (٥٩٠):

«وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية، المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون. ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم، كعلم الطب مثلا، دام إلى الزمن الحاضر، فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيليه فى أواخر القرن الماضى».

نقول: يكتب الدكتور جوستاف لوبون كل هذا ويكثر منه، ويضن أن يعترف لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وسنعالج ذلك فيما يأتى، إن شاء الله.

* * *

المقال السابع

نقدنا فى المقال السابق ما قاله الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب)، من أن ظهور محمد صلى الله عليه وسلم قد وافق العهد الذى كان فيه العرب يهمون بتوحيد قبائلهم وآلهتهم، وإلى هذه الموافقة يرجع نجاحه فيما ندب نفسه إليه. واليوم ننقد ما ذكره من أنه صلى الله عليه وسلم كان مصابا بالمرائىالخيالية فكان يخيل إليه أنه يخاطب الملك، ويتلقى عنه الوحى من الله، وهو مايسميه الأطباء Hallucination، وقد ترجم الأستاذ محمد عادل زعيتر مترجم كتابه هذه الكلمة (بالهوس) فقال:

«ونرى محمدا الثاقب النظر من الناحية العلمية، من ذوى الهوس كما هو شأن أكثر مؤسسى الديانات، وليس فى ذلك ما يحط من قدره، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين أنشأوا الديانات وقادوا الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدول، وأثاروا الجموع وذللوا الصعاب، ولو كان القصد، لا الهوس، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر».

نقول: هذا التعليل للنبوات ضعيف لا يحتمل النقد، ولجوء مثل الدكتور جوستاف لوبون إليه لا يتفق ومقامه العلمى العظيم، ولكنه إنما يلجأ إليه ليتفق ومذهبه المادى الذى مؤداه: أن ليس وراء الأشياء المحسوسة عالم يتنزل منه العلم من غير طريق الحواس.

على أننا لما أردنا أن نتحقق من كلمة (هوس) فى الأصل الفرنسى، رجعنا إليه، فوجدنا أن الأستاذ محمد عادل زعيتر قد خفف من لهجة المؤلف، وهذب منها إلى حد يلاحظ فيه عليه. والظاهر أن الذى حمله على ذلك سوء وقع رأى المؤلف لدى المسلمين. ولكن سنتنا المتبعة منذ أن عالج أوائلنا الرد على الخصوم، هى أن تورد مذاهبهم كاملة غير منقوصة، وأن تعطى كل قوتها معنى ومبنى، ثم يشرع فى الرد عليها. ولما كنا بسبيل دفع الشبهات عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، رأينا أنه لابد لنا من ترجمة كل ما حذفه الأستاذ زعيتر من كلام المؤلف فى هذا الموطن، لنرد عليه بما يدحض شبهاته، قياما بالواجب علينا إزاء السيرة المحمدية التى انتدبنا لوضعها مناسبة للمعارف الحديثة. قال المؤلف نفسه فى صفحة ٩٠ من كتابه (حضارة العرب):

«قد أكدوا أن محمدا كان مصابا بالصرع، ولكنى لم أتبين فيه شيئا من ذلك، وكل ما أعلمه عنه بشهادة معاصريه، ومنهم زوجته عائشة، أنه فى أثناء نزول الوحى السماوى عليه، كان يقع فى حالة خاصة يعتريه فيها احتقان فى الوجه وأنين، وينتهى ذلك بوقوعه فى إغماء.

«وهو فيما عدا تخيلاته الوهمية كان مثل الكثيرين من المصابين فى عقولهم، يملك حكما على الأمور جد سليم.

«وعلى حسب وجهة النظر العلمية يجب وضع محمد، كأكثر مؤسسى الأديان، فى الأسرة الكبيرة من المعتوهين. ولكن هذا شىء لا يهم إلا قليلا، إذ ليس الذين يؤسسون الديانات، ويقودون الرجال هم المتوقرون المفكرون، ولكن المصابين بالخيالات هم وحدهم الذين يقومون بهذا الدور.

«أما الزعم بأن محمدا كان كاذبا فى دعواه النبوة. فيظهر لى بوضوح أن مثل هذا الزعم لا يحتمل النقد هنيهة. ولقد استمد محمد من خيالاته التى كان يعتقد صحتها التشجيعات الضرورية للتغلب على كل ما صادفة من العقبات التى أحاطت بخطواته الأولية. لأن الإنسان يجب عليه أولا أن يكون معتقدا فى نفسه لأجل أن ينجح فى فرض عقيدته على سواه. فهو كان يعتقد أنه مؤيد من الله، وشعوره بالقوة بسبب هذا التأييد منعه من التقهقر أمام أية عقبة». أ.هـ

نلتمس من قرائنا عذرا فى نقل كل ما قاله الدكتور جوستاف لوبون فى هذا الموضوع، لأنه رأى أصحاب الفلسفة المادية فى أمر النبوات، وفى تعليل نجاح أصحابها فى تذليل العقبات، وفى انتشار الديانات. وهو رأى يتأثر به أكثر من يطلبون العلم من المسلمين على الطريقة الغربية. فلذلك رأينا أن نعنى به عناية خاصة، لندفع عن النبوة شبهة ظن أهلها أنهم بلغوا من تعليلها ما يثلج عليه الصدر، ويحل جميع ما يتولد حولها من المعضلات الفلسفية.

لقد كانت كلمة الفلسفة المادية فى النبوة، أنها مجرد دعوى ينتحلها طلاب السلطان لفرض إرادتهم على أقوامهم على صورة تحملهم على تقديسها، باعتبار أنها وحى إلهى يجب الإذعان له. وتضحية النفس والمال فى سبيل تنفيذها.

ولكن هذا التعليل تبين ضعفه من دراسة أحوال من شُهروا بالنبوة، فقد كانوا من قوة الإرادة، والصبر على الشدائد، وتحمل الاضطهادات، بحيث لم يؤثر عن واحد منهم أنه رجع عن دعوته، أو ضعف حيال

الموت الذى كان يلوح قومه له بشبحه المخيف، فآثروا أن يقتلوا، وأن يمثل بهم، على أن يرجعوا عما كانوا يدعون إليه، وهى شجاعة لم يشاهد لها مثيل فى غيرهم من دعاة المذاهب الفلسفية أو العلمية. فاضطر قادة الفلسفة المادية حيال هذه الظاهرة المدهشة أن يغيروا نظريتهم فى النبوة بأخرى لا ترد عليها هذه الشبهة، فتخيلوا ما ذكره الدكتور جوستاف لوبون، وهى أن النبوة حالة جنونية تعترى بعض الذين يفكرون فى العلاقات الروحية بين الله والإنسان، وفى الأساليب التى يمكن بها إنقاذ البشرية من تسويلات الشيطان، فيصابوا، من شدة إدمانهم على الرياضة والتفكير، بداء عصبى عقام يتخيلون معه أنهم يكلمون الملائكة، ويتلقون بواسطتهم رسائل عن الله خاصة بإصلاح الناس، فيهبوا لأدائها، معتقدين أن الخالق يؤيدهم ولا يدعهم فريسة لأعدائهم، فيمضون فى القيام بمهمتهم لا يلوون على شىء، محتقرين كل ما يصيبهم فى سبيلها من أذى، فلو صادفت هذه الدعوة قوما يكونون على وشك تطور أدبى ومادى، انضموا على متنبئيهم متحمسين، وهبوا لتحقيق ما يوحيه الله إليهم مستبسلين، وكثيرا ما كان هذا الاندفاع منهم سببا لخير اجتماعى وأدبى عظيم.

فالأنبياء فى نظر الماديين لا يمكن أن يكونوا كاذبين، لأن الكاذبين لا يمكن أن يصبروا على الابتلاء إلا إلى حد محدود ثم يفتضحون، ولكنهم من طائفة المتهوسين المصابين بضرب واحد من ضروب الاختلال العقلى، وقد يكونون فيما عداه من كبار المعتقلين، وعظماء المفكرين.

هذه هى النظرية التى صاغها أئمة الفلسفة المادية، ليعللوا بها ظهور الأنبياء ونجاحهم فى إحداث التطورات الأدبية والاجتماعية العظيمة فى العالم الإنسانى. وهى نظرية مؤلفة من عناصر علمية لا تصلح لبناء

مثلها إلا من طريق الإكراه، وإلاكراه فى مثل هذه الأمور الجسام يعتبر جريمة لا تغتفر، لما يكون من أثرها فى طمس معالم الحقائق، وصرف العقول عن المصادر الصحيحة للمعرفة.

نعم إنه مما ثبت طبيا أن المصابين بالهيستريا يتخيلون رؤية أشخاص ويثقون بصحة ما يرونه منهم، ولا يمكن صرفهم عن هذه الثقة مهما بذل فى إقناعهم.

وثبت أيضا أنه فى بعض الأمراض العصبية، تتفكك وحدة الشخصية العادية للمصاب، فيتسرب من خلالها معلومات من عقله الباطن، أرفع من معلوماته الراهنة، ومنها أمور غيبية، فيظن من يسمعه أن المصاب اتصل بعالم الروح وأتى منه بهذه المعلومات.

ولكى يدرك القراء هذا الموضوع نذكر لهم أنه ثبت من التنويم المغناطيسى العميق، أن للإنسان شخصيتين متميزتين، إحداهما وهو فى حالته العادية، والأخرى وهو فى حالة النوم المغناطيسى، وهذه الأخيرة هى شخصيته الحقيقة لإدراكها لحالتيه، وتحكمها فى حياتيه. فإذا أوقظ المنوَّم لم يذكر مما جرى له شيئا.

ثبت كل هذا علميا. فظن قادة الماديين أنهم بهذه المكتشفات أدركوا سر النبوة التى قادت جميع التطورات الاجتماعية للعالم من أول وجوده. فألفوا نظريتهم المذكورة آنفا، فأصبحت النبوة فى رأيهم حالة مرضية تعترى بعض الناس فيهبون للدعوة الدينية فى اندفاع لا يعرف هوادة، ويصادفون نجاحا لا يبلغ عشر عشيره قادة العلم والفلسفة ممن لم يصابوا بمثل أمراضهم.

ويغيب عنهم أن المصابين بهذه الأمـراض يكونون عادة ضعافا لا يصلحون لكسب أقواتهم من شدة ما بهم من الآلام الجسمية، ومن الانحلال الناشئ عن تكرر أدوار التشنجات العصبية، ومن ضيق الصدر الذى يسببه لهم الأرق المستعصى. ويكونون فوق ذلك ضعاف البنية، متهدمى الأعضاء. فإذا جد الجد فى خصام حول مسألة، أو فى دفاع عن حوزة، أدركهم داؤهم فجمدوا حيث هم لا يصلحون لشىء، أو صاحوا مذعورين وسقطوا مغشيا عليهم.

وإذا كان جنونهم لا يتعدى موضوعهم، وهم فيما عدا ذلك أصحاء قويون، فقدوا الاتزان العقلى، والمرونة السياسية التى تمليها على القادة مراعاة الأحوال، ومماشاة الظروف، وكانوا من الصلابة والتطرف بحيث لا تلين لهم قناة، وبحيث يندفعون إلى مصادمة الحوادث صداما يتبين منه أتباعهم أنهم لا يصدرون عن حكمة سماوية، ولكن عن تهور مرضى خطير، فينتهى أمرهم بفشل عظيم:

إننا نعجب لهؤلاء الماديين كيف يتجاهلون أن معالجة الجماعات تقتضى من الصبر على المكاره، والآناة فى مضطرب الكوارث، والحلم فى مزدحم المثيرات للعواطف، وكل ما يمكن أن تمليه الكياسة وبعد النظر وتقدير العواقب على من قدر عليهم هداية الجماهير الجاهلة، وقيادة النفوس الجامحة، ومداورة الأهواء المتغلبة؛ ولا يعقل أن يطيق صبرا على هذه المهمة الشاقة سنين طويلة رجال مضطربو الأعصاب إلى حد أن يصدق تسميتهم بالمعتوهين!

وهنا أمر جدير بالتأمل وهو أن الأنبياء فى اتصالهم بالملائكة، يتلقون منهم وحيا يستفيدون منه علما يمكنهم من أداء مهمتهم، ورشدا

يتذرعون به للوصول إلى غايتهم، وكثيرا ما توحى إليهم أمور غيبية تختص بمستقبل أقوامهم وأمم العالم أجمع. بل قد يتفق أن يلقى إليهم وحى يلومهم على بعض ما وقع منهم، فهل تعتبر نظرية الماديين فى النبوة كافية فى تعليل ما ذكرت، فيصبح الاختلال العصبى، أو الجنون فى تعبير الدكتور جوستاف لوبون، معدنا للعلم والحكمة، ومصدرا لعوامل أعظم التطورات الاجتماعية فى العالم. وهل يعقل أن يكون العالم الإنسانى كله فى خلال آلاف مؤلفة من السنين، تابعا فى أخص مطالب روحه، وفى أهم أدوار تطوراته الاجتماعية، لتخيلات جنونية للمتهوسين، وللاضطرابات المخية للهستيريين.

لنضرب لما نقوله مثلا بصلح الحديبية. وذلك أنه فى السنة السادسة من الهجرة أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أنه يريد العمرة بمكة، وخرج ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وليس معهم من السلاح إلا السيوف فى قربها. ولما بلغ النبى وأصحابه ضاحية مكة أرسلت إليه قريش رسولا تسأله عما يريده. فأخبره رسول الله بأنه جاء معتمرا ولم يرد حربا. فقالت قريش والله لا كان ذلك أبدا وفينا عين تطرف. فأرسل النبى إليهم عثمان رسولا ومعه عشرة، فاعتقلوهم. عند ذلك قال النبى لا نبرح حتى نناجزهم الحرب ودعا أصحابه للبيعة على القتال.

عند ذاك خافت قريش المغبة، فأرسلت سهيل بن عمرو ليكلم النبى فى الصلح، فأبى حتى يردوا عثمان ومن معه فقال مندوبهم نفعل ذلك إذا أطلقت أسرانا، وكان قد أسر منهم خمسين رجلا، فأطلقهم، وعرضت قريش شروط الصلح وهى: (١) وقف الحرب أربع سنوات،

(٢) مـن التجـأ منهم إلى النبى مسـلما فعليه أن يـرده، ومن لجأ من أصحابـه إليهم فلا يردونه، (٣) أن يرجع المسـلمون هـذا العام بغير عمرة، وأن يأتوا فى العام المقبل، (٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش فله ذلك، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش سمح له به.

قبل النبى كل هذه الشروط، ولكن المسلمين أجمعوا على أنها مهينة لكرامتهم، وراجعوه فى أمرها. فأصر على موقفه منها، قائلا إنه قد أوحى إليه بقبولها. فأطاعوه على مضض وكادوا لا يفعلون.

فكانت ثمرة هذه المعاهدة خيرا وبركة على المسلمين، فإنه لما استقر الأمن بين المؤمنين والمشركين، حدثت بين الفريقين مقابلات ومباحثات، فأسلم من قادة المشركين رجال كانوا عدتهم إذا جد الجد، فانكسرت شوكة قريش، فلما غزاها النبى صلى الله عليه وسلم لم تقو على المقاومة.

فهل يمكن أن تعزى هذه المداورة التى لم يفقه جيش برمته لها معنى، والتى تتطلب حكمة عالية، إلى عمل الاضطرابات الهستيرية، والخيالات المرضية.

إن من ضروب الجرأة الشائنة أن يخنع الماديون لمثل هذا الرأى المزرى بكرامة الفلسفة، والحاط من قدرها وقدر الذوق العلمى السليم معا.

هنا نكرر ما سبق لنا قوله من أن الماديين لنكرانهم وجود عالم الروح، يتلمسـون العلل من هنا وهناك ليسـتطيعوا أن يحموا جبهتهم المذهبية مـن الانهيار، ولكن الفتوحات العلمية الحديثة فى البحوث النفسـية، كشـفت تلـك الجبهة، وجعلتهـا عرضة لما لا قبل لهـا به من عوامل التحطيـم، فلم يعد لمثـل تعليلاتهم التى ذكرناها مـن أثر فى العقول.

المقال الثامن

لقد ارتكب الماديون شططا بعيدا بادعائهم قيام الوجود المادى بدون قدرة مدبرة له، وبزعمهم أن نواميس الطبيعة تكفى لتعليل كل ما هو عليه من نظام وإحكام، ومن تنوع وإبداع فى الكائنات، حتى الحية منها إلى أن تصل إلى الإنسان.

الشطط فى هذه المزاعم بعيد المدى بحيث يتعذر تصوره، ولولا أن العقل الإنسانى مهما سما فى معارج التكمل، لا يزال على حالة توجب الأسف من النقص، لما لقى مثل هذا المذهب من رواج بين ظهرانى أمم بلغت شأوا بعيدا من الثقافة.

ظهرت المادية فى حضانة الفلسفة قبل أكثر من ألفى سنة، ولا سيما فى بلاد اليونان، وقد نقلنا أشهر مذاهبهم فى مواضعها من هذه السيرة، وتبين منها القراء أنها بحكايات العجائز أشبه، ومازال المذهب المادى يتجرد من حشوه الرث، على نسبة تقدم العلم، إلى أن وصل إلى القرون الأخيرة على صورة دعوى مجردة عن الأدلة، أساسها استبعاد أن يكون فى الكون قوة خارجة عنه تدبره من عل؛ محتجا بأن فيه من آثار التطورات التدريجية، والمحاولات الفاشلة، ومن الشرور والدوافع القوية إليها، مالا يتفق وافتراض وجود تلك القوة المدبرة.

فلو عرضت لعقلك الكون على ما فيه من عوالم متماسكة ومترابطة، ومن إبداعات محيرة للعقل فى دقتها وتناسقها، وذهابها فى الجمال والأناقة

كل مذهب، ومن قيام المواد وما ركب منها على نظام هندسى، استنتج العقل من النظر إليه أسمى قوانينه الرياضية وأصوله الميكانيكية، وما سماه بالنواميس الطبيعية، ثم لو عرضت لنظرك عالمى النباتات والحيوانات، وما تجلت فيه من الصور الرائعة، وما قامت عليه من التراكيب المعجزة، وما ألهمت الأحياء الضعيفة والقوية من مقومات حياتها، وما أوتيته على ضعفها من الحيل والوسائل لتحصيل قوتها، وحفظ صغارها، لو عرضت لعقلك ونظرك كل هذه العوالم والكائنات، لاحتقرت كل من يدعى أنها وجدت من طريق الاتفاق المحض، وأن القوى الطبيعية المجردة من العقل تستطيع أن توجدها على ما هى من تباين فى الصور، وتنوع فى التراكيب، واختلاف فى القوى، وخاصة إذا تدبرت فى أن جميع هذه الكائنات الحية الضعيفه قد ألهمت من وسائل حياتها، وذرائع وجودها ما عم على جميع أفرادها، وكان سببا فى حفظ ذواتها وأنواعها أجيالا لا تحصى. وهو مما لا يمكن حصولها عليه بقواها الذاتية.

أليس فى هذا دليل محسوس على أن الخالق تولاها بالهداية، وبث فى روحها من العلم بالوسائل ما تحفظ به حياتها الفردية والنوعية. ولقد حاول أقطاب المادية أن يعللوا هذا الإلهام بأسباب طبيعية، ففشلوا، واعترف دارون نفسه فى كتاب الأنواع بأنها مسألة مستحيلة الحل.

وإذا أراد القارئ أن نستأنس ببعض آراء علماء الكون فى هذا الموضوع، نؤاتيه بما قاله العلامة (ادوار ميلين) المدرس بجامعة السربون، عند ذكره حياة الحشرة اكسيلوكوب:

«إن هذه الحيوانات التى تراها طائرة فى الربيع، تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة، فلم ير صغارها أمهاتها ولا تعيش هى

لترى أولادها، التى تكون على حالة ديدان لا أرجل لها، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية، ولا الحصول على غذائها، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تبقى مدة سنة من الزمان فى مسكن منفصل وهدوء تام وإلا هلكت.

«فترى الأم متى حان وقت بيضها، تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا، فإذا أتمته على ما ينبغى، أخذت فى جلب ذخيرة تكفى صغيرها سنة، وتلك الذخيرة هى طلع الأزهار، وبعض الأوراق السكرية (ومن أدراها بذلك وهى لم ترها ولم تعرف ما يلزمها). فتحشو ذلك الطلع فى قاع السرداب ثم تضع بيضة، وتأتى بنشارة الخشب فتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة. ثم تأتى بذخيرة جديدة فتضعها فوق ذلك السقف. ثم تضع بيضة أخرى وهلم جرا، فتبنى بيتها مكونا من عدة طبقات، ثم تترك الكل وتموت.

ثم عقب هذا العالم الجليل على هذا البيان بقوله:

«يجب أن يدهش الإنسان حين يرى حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج لاتفاق (أى الصدفة)، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة، وأثر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الخشب ومادة الأحجار، وأن إلهامات النمل مثل أسمى مدركات القوة المدركة الإنسانية، ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية والكيماوية التى بها يحصل تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأجسام. إن هذه الفروض الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية، التى يسترونها باسم العلم المحسوس، قد دحضها

العلم الصحيح دحضا، فإن الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها أبدا. وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة، يسمع بكل جلاء ووضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية» أ.هـ

ألست ترى بعد الاطلاع على هذا التفصيل الدقيق من تاريخ حياة حشرات لم تر أمهاتها، أن الوحى الإلهى لها حقيقة تكاد تكون ملموسة. وإلا فمن أين لها المعرفة بطبائع أجنتها فى داخل بيضاتها، ومن أين لها العلم بحاجاتها إلى كل هذه العناية.

هذا مثل من عشرات ألوف من حياة الحشرات وغيرها، وهو يشهد بأن الخالق متوليها بالوحى لاستبقاء وجود آحادها وأنواعها، ويشهد فى الوقت نفسه بحاجة العالم الحى إلى تدبير مدبر، وإلا باد بل لم يوجد أصلا، لاستحالة وجوده معتمدا على نفسه.

أما العالم الإنسانى فقد نشأ مؤمنا بالوحى الإلهى، وأظهر مظهر لذلك أنه نشأ متدينا، فلم تشاهد فى أعمق ما وقعت عليه أعين العلماء الجيولوجيين من آثار العالم الإنسانى بقايا أمة كانت غير متدينة، ولم يوجد على سطح الأرض أمة أو جماعة مهما بلغت من دركات الانحطاط العقلى لا تدين بدين ما، ومن أخص لوازم الدين الاعتقاد باتصال المخلوق بالخالق على نحو ما.

وفى العهد الأخير للإنسانية، وقد أوغل العلم فى التسلط على تعقلها، استبعد كثير من الناظرين أن يكون لله رسل إلى الناس وقد آتاهم عقلا يميزون به بين الحق والباطل، وغفلوا أن للإنسان حاجة

روحية متأصلة فى نفسيته، وهى الاتصال بقيوم الوجود. فإن العالم مهما بلغت فتنته للعقول من الناحية العلمية والصناعية. فإن فيه من النقص وعوامل الفناء والوحشة وعدم الكفاية لإشباع مطامح النفس ومطامع العقل، وما يحوّل كبار القلوب عنه لتلمس عالم أرفع منه، يجد السمو الروحى الذى يشعر به الإنسان مسرحا للتمتع فيه بحياة أعلى ووجود أسمى. فليس لهؤلاء المفكرين الممتازين، وعددهم يزداد كل يوم، إلا أحد موقفين: إما اليأس وتكثير سواد المتشأمين، وإما الرجاء والبحث عن حقيقة الحياة الإنسانية مع الباحثين.

وقد وفق الله الأخيرين إلى نواح من البحث فى الشخصية الإنسانية، فاهتدوا إلى حقائق لم يكونوا يحلمون بها، وعوالم لم يكونوا يتخيلون وجودها، أرتهم رأى العين أن ما كانوا يعتبرونه شبهات علمية. ما هى إلا جهالات بالحقائق الكونية.

فإنه فى القرن الثامن عشر، حيث أخذت الشكوك فى الدين بأكظام[1] الباحثين، وتوالت البحوث العلمية لإثبات آلية الطبيعة وتجردها من كل ما يمت إلى الروح بسبب، اكتشف عالم ألمانى هو الدكتور (مسمر) فى سنة ١٧٧٠م التنويم المغناطيسى، فأثبت بالعمل أن الإنسان ليس بمجرد أداة مادية، ولكنه مستودع لروح تخالف المادة من جميع الوجوه، وتتسلط عليها بعد أن تبطل عمل النواميس الطبيعية عنها، ودلل على وجود عقل باطن للإنسان أرفع من عقله المادى، متصل بعالم روحانى أسمى بما لا يقدر من العالم المادى.

---

(١) مفردها: الكظم: مخرج النَّفَس.

نعم إن هذا الاكتشاف هال العلماء الجامدين، وثاروا عليه جاهدين، وظلوا يجادلونه قرنا كاملا، ولكنه تغلب بحقائقه الثابتة على كل خصومه، وحصل على اعتراف العلم به. فكان هذا الاكتشاف بمثابة كوة فتحها العلم إلى عالم الروح، مكنته من دراسة الشخصية الإنسانية الباطنية دراسة علمية محضة، كانت نتيجتها الإثبات بالدليل المحسوس أن الإنسان الحقيقى ليس محصورا فى هذا الجسد الحيوانى، ومدى وجوده ليس قاصرا على ما حوله من الكائنات المادية، ولكنه ينطوى على قوى باطنية علوية متصلة اتصالا مباشرا بالعالم الروحانى على درجات شتى، وأنه يستمد منها كل ما يشعر به فى نفسه من سمو، وكل ما يتوق إليه فى حياته من خلود.

إن هذا الاتصال الروحانى بين النفس البشرية وبين عالم ما وراء الطبيعة، وقد أصبح حقيقة علمية، يقرّب إلى عقولنا مهما بلغت من الورع الفلسفى، أن قيم الوجود يصطفى أرواحا شديدة الاتصال بذلك العالم، فيوحى إليها ما يريد إبلاغه إلى خلقه مما يجب أن يأخذوا به من التعاليم الأدبية والاجتماعية، لتتألف منهم مجموعة مختارة تحدث من الانقلابات ما تكون الأسرة البشرية فى أشد الحاجة إليه.

وقد حدث ذلك فعلا فى جميع أقطار العالم، حتى فى العهد الذى كان الناس فيه يجهل بعضهم وجود بعض، تفصلهم بحار مترامية الشواطئ، ومساوف لا يمكن قطعها بما لديهم من الوسائل، فوجدت ديانات لاحصر لها أخذ بها أهلها فى حياتهم المادية والأدبية، تختلف فى جزئياتها على قدر اختلاف عقولهم وبيئاتهم، وتتفق فى كلياتها،

وهى الاعتقاد بخالق الوجود، وبوجود حياة بعد هذه الحياة يثاب فيها الإنسان أو يعاقب على ما قدم فى حياته الدنيا من خير أو شر.

أليس أكبر مظهر لهذا الأمر الجلل، أن يكون الناس إلى عهدنا هذا يدينون بأديان شتى أتى بكل دين منها رسول خاص، ذو تاريخ معروف وتعاليم محفوظة. إن هذا العموم يدل دلالة قاطعة، حتى مع جهل الأمم بعضها لبعض قبل هذا العهد، على أن النبوة كانت حاجة روحية عامة لجميع البشر، وإلا كانت اختلفت الأمم فى طروز تدينها. وهذا الاتفاق يوجب على الفلسفة دراسته دراسة جدية، ومحاولة وجدان سببه فى النفسية الإنسانية. أما الاكتفاء بالقول بإن هؤلاء الأنبياء كانوا من الذين دفعهم حب التسلط على قلوب الناس إلى أن يدعوا أنهم وسطاء بينهم وبين الخالق، وأنهم يتلقون منه وحيا ليقيهم به على ما ينفعهم فى دنياهم، فدعوى ركيكة لا يسيغها عقل ناضج، فإن المتلاعبين بالدين يكونون عادة من سفلة الناس. فلا يلبثون أن ينكشف أمرهم وتلفظهم أممهم لفظ النواة.

وليس زعم الكثيرين من علماء الاجتماع اليوم، ومنهم المسيو جوستاف لوبون، أن جميع الأنبياء كانوا مصابين بالجنون، وأنهم بفضل ما كان يتراءى لهم من الخيالات ثبتوا على دعاويهم وأصروا عليها، فتغلبت إرادتهم على إرادات الجماهير، فأشد ركاكة من الشبهة المتقدمة؛ وقد برهنا على ذلك فى الفصل السابق.

وإذا أضفنا إلى هذا أن العالم العلمى فى شغل متواصل اليوم من دراسة الشخصية الإنسانية واتصالاتها النفسية بالعالم الروحانى، قرُب للعقول فهم النبوة، وعقل اتصالها من أشرف نواحيها الباطنية بالكائنات

العلوية، التى يتنزل عليها من علم الله ما تستطيع أن توصله لتلك الأرواح النبوية.

هذا تحليل علمى له أصل راسخ فى المعلومات العصرية التى أصبح لا يتمارى فيها إلا من يجهل وجودها، ولم يعن بالإلمام بها.

وقد اتفق أن بين يدى الساعة كتاب (إرادة الاعتقاد) للفيلسوف المشهور (وليم جيمس) مدرس السيكولوجيا فى جامعة (هارفارد) بأمريكا، ترجمه إلى العربية حضرة الأستاذ الألمعى الدكتور محمود حب الله مدرس الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين. وتفضل بإهداء نسخة منه إلىّ، فرأيت أنه يحسن بى أن أستشهد به على صحة ما أقوله من أن البحوث الروحانية قد بلغت شأوا بعيدا من السلطان على عقول العلماء فى هذا العصر، فقد جاء فيه قول الأستاذ وليم جيمس:

«إنى أعتقد أن كل من يفطن إلى مثل هذه المسائل التى يعتز بها الروحيون، ويفكرون فيها على نحو علمى، فإنه يكون فى خير مركز يسمح له بخدمة الفلسفة. وإنه لفأل حسن أن نعلم أن كثيرا من العلماء فى مختلف الأقطار يتجهون الآن هذه الوجهة».

ثم أخذ يدحض قول بعضهم إن الجماعات التى تعنى بهذه المسائل من أهل السذاجة فقال:

«نظرة واحدة لأعضائها تكفى لدحض هذا الرأى. فالرئيس هو الأستاذ (سيجوك) المعروف بسبب أعماله الأخرى بأنه أكبر ناقد عنيف، وأنه أكثر العقول فى إنجلترا تشككا. وأحد وكلائها هو النابه البصير آرثر بلفور، ونائبها الثانى هو ذلك البصير أيضا الأستاذ لنجلى. ومن أعضائها العاملين رجال مثل الأستاذ لودج العالم الإنجليزى فى الفلسفة الطبيعية، والأستاذ ريشيه العالم الفرنسى فى علم وظائف الأعضاء.

ونجد بين أعضائها كثيرا من العلماء الذين حازوا شهرة عالمية بسبب مقدرتهم العلمية».

وبعد فهذا ختام السيرة المحمدية. فأرجو أن أكون قد وفيت فيها ببعض ما ينتظر منى، وأحمد الله على توفيقه إياى لبلوغ هذه الغاية. مستمدا منه القوة على المزيد، إنه ولى الصالحين.

* * *

تذييل

(عند إعادة طبع كتاب (حضارة العرب) للدكتورٍ جوستاف لوبون من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م طلب رأى البحوث الإسلامية فيما جاء به من سلبيات وإساءات.. فتم فحصه.. وقدمت للمجمع عنه عدة تقارير.. منها هذا التقرير الذى نذيل به هذا الكتاب)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير عن فحص كتاب

- عنـوانه : (حضارة العرب)..
- مؤلفـه : جوستاف لوبون..
- مترجمه : عادل زعيتر..
- صفحاته : ٦٦٠ صفحة ـ من القطع الكبير..
- الناشـر : «مكتبة الأسرة» ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ٢٠٠٠م

مؤلف هذا الكتاب هو عالم النفس والاجتماع الفرنسى «جوستاف لوبون» [١٨٤١ ـ ١٩٣١م] ـ الذى ألّف ـ غير هذا الكتاب ـ مجموعة من الكتب الأساسية، فى تاريخ الأمم والحضارات.. منها [اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى] و [فلسفة التاريخ] و [السنن النفسية لتطور الأمم] و [روح الجماعات].. ولقد ترجمت هذه الكتب كلها إلى اللغة العربية..

أما كتاب [حضارة العرب] ـ موضوع هذا التقرير ـ والذى ألّفه جوستاف لوبون ١٨٨٤م ـ فلقد ترجمه المرحوم الأستاذ عادل زعيتر وطبع ـ للمرة الأولى ـ ١٩٤٥م ـ طبعة الحلبى ـ ثم أعيد طبعه ١٩٤٨م.. وهذه الطبعة الأخيرة ـ التى أخرجتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ وهى تصوير لطباعته القديمة، دون زيادة أو نقصان..

ومن أسباب اهتمام الحركة الفكرية والثقافية فى بلادنا بكتابات جوستاف لوبون، موقفه المنصف لتاريخ العرب والمسلمين ولحضارة

العرب والإسلام. قياسا ومقارنة مع كتابات كثير من الغربيين عن الإسلام والعرب والمسلمين.. حتى إن الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] قد استشهد بأراء جوستاف لوبون، وإنصافه للحضارة الإسلامية، ووعيه بحقيقة المذهب الفلسفى الإلهى لأبى الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] ـ أثناء رد الأستاذ الإمام على فرح أنطون ١٩٠٢م فى كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٣٢٣، ٣٢٥ ـ طبعة القاهرة ١٩٩٣م ـ ولم تكن كتابات جوستاف لوبون قد ترجمت فى ذلك التاريخ..

* * *

وفى المقدمة التى كتبها المترجم ـ وهو من خيرة المترجمين الذين أثروا الحياة الفكرية بالمترجمات المنتقاة.. والتزموا البلاغة العربية فى الترجمة ـ اهتم المترجم ـ بالدرجة الأولى ـ بإبراز إنصاف جوستاف لوبون للحضارة الإسلامية ـ التى يسميها العربية ـ ودفاعه عن الإسلام، ونقده لكثير من الافتراءات الغربية التى كتبها جاهلون أو متعصبون.. مع إشارة عابرة ـ فى هذه المقدمة ـ إلى بعض أخطاء جوستاف لوبون فى حق الإسلام ونبى الإسلام، عليه الصلاة والسلام..

* * *

وبالفحص المتأنى لهذا الكتاب ـ الذى سبق وقرأته فى طبعته العربية الأولى ـ تبين لى:

أولا: أن الكتاب منصف فى دراسته للحضارة العربية الإسلامية، وللإنجازات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية التى حققها الإسلام ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه من بعده..

وفيه دفاع منطقى عن امتياز الإسلام ـ كعقيدة توحيد نقية وبسيطة ملائمة للفطرة ـ على العقائد الدينية التى أفسدتها الفلسفات الباطنية والنزعات العنصرية.. ودفاع عن منهج الإسلام وممارساته فى تحرير عقائد الأمم وضمائر الشعوب التى فتح المسلمون بلادها من الإكراه الدينى والاضطهاد المذهبى.. وفى الكتاب، كذلك، إعلاء لشأن العرب، وإبراز لإنجازات العرب المسلمين على إنجازات الشعوب غير العربية التى دخلت الإسلام، والتى حكمت العرب ـ مثل المغول والأتراك..

وثانيا: فى الكتاب أخطاء فاحشة ـ بمعايير ومقاييس الإيمان الإسلامى ـ ومرجع هذه الأخطاء هو الموقف الفكرى والفلسفى للمؤلف، الذى لا يؤمن بما وراء الطبيعة والمادة عند دراسته للأديان والروحانيات.. فهو قد اعتمد «المنهاج الوضعى» الذى أراد أصحابه ـ من فلاسفة «الوضعية الغربية» ـ محاكمة العقائد الدينية والعلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية إلى معايير ومناهج العلوم الطبيعية ـ على النحو الذى ساد فكر النهضة الأوربية منذ عصر التنوير الوضعى والعلمانى ـ وعن هذا المنهج ـ الذى مثّل مفاتيح الأخطاء التى دفع فيها المؤلف ـ يقول ـ ص٣:

«إن مبدأ «العلة» المسيطر على دراسة قضايا العلم يسيطر على دراسة حوادث التاريخ أيضا، وإن طرق البحث والاستقصاء التى يُستعان بها على دراسة القضايا العلمية يُستعان بها على دراسة الحوادث التاريخية أيضا، فيجب، إذن، درس الحادثة الاجتماعية كما ندرس أية حادثة طبيعية أو كيماوية».

وفى هذا المنهج غفلة عن أن لكل حقل من حقول المعرفة منهاجا مناسبا تدرس به معارف وعلوم هذا الحقل. فلا يمكن تحكيم منهاج الدراسات الفيزيائية فى النقد الأدبى، ولا دراسة التصوف بمنهاج الدراسات اللغوية، ولادراسة الوحى والمعجزات بمنهاج العلوم الطبيعية والمادية..

ثالثا: ومن أخطر التطبيقات لهذا المنهاج الوضعى والمادى فى رؤية المؤلف للإسلام، وصفه للوحى بـ «الهوس» ـ وهو «طرف من الجنون».. وتكرار هذا الوصف فيما كتب.. فقال ـ ص٢٧ ـ فى حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أعاجيب التاريخ أن يُلَبِّى نداء ذلك المتهوس الشهير شعب جامح شديد الشكيمة لم يقدر على قهره فاتح، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول، وألاّ يزال يمسك، وهو فى جدثه، ملايين الناس تحت لواء شرعه».

وهو ـ المؤلف ـ مع احترامه لإنجازات الرسل والأنبياء ـ الذين يسميهم «مؤسسى الأديان والدول» يرى فى وصف «العلم» المادى والطبيعى لهؤلاء الأنبياء «بالمتهوسين» حقا!.. فيقول ـ ص٢٧: «ويجب احترام أعاظم مؤسسى الأديان والدول، وإن وَصَفهُم العلم الحديث بذوى الهوس، وحُقَّ له ذلك».

ثم يعود إلى هذه الزلة الفاحشة ـ فى ص١٤، ١٥ ـ أثناء حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: «وإذا عدوت هَوَس محمد، ككل مفتون، وجدتَهُ حصيفا سليم الفكر. ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسى

الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولو الهوس وحدهم، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس، ومتى يُبْحَث فى عمل لمفتونين فى العالم يُعْتَرَف بأنه عظيم، وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا الجموع وقادوا البشر، ولو كان العقل، لا الهوس، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر».

وحتى عندما ينفى ـ المؤلف ـ صفة الخداع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نراه مصرا على وصفه بالهوس، فيقول: «ولا يقف أى قول بخداع محمد ثانية أمام سلطان النقد كما يلوح لى، ومحمد كان يجد فى هوسه ما يحفزه إلى اقتحام كل عائق، ويجب على من يود أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شىء، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله، فيتقوّى ولا يرتد أمام أى مانع».

وهو ـ المؤلف ـ يمضى فيعم هذا الوصف ـ الهوس ـ على المتنبئين ـ عندما يشير إلى الأسود العنسى ـ عيهلة بن كعب [١١هـ/ ٦٣٢م] ـ ومسيلمة الكذاب [١٢هـ/ ٦٣٣م] ـ فيقول: «فقد ظهر متهوسون كثيرون هزهم ما نال محمد من التوفيق، ورأوا أن يدعوا النبوة أيضا، فاستطاع أحدهم أن يجعل سكان نصف اليمن من أتباعه، ولولا قتل بعض المؤمنين إياه لخسر الإسلام أحسن ولاياته، واقتصر متهوس آخر على إضافة بعض السور إلى القرآن، وبلغ من النفوذ، لزمن معين، ما يقرب من نفوذ الخلفاء الأولين».

تلك هى أخطر الزلات الفاحشة فى هذا الكتاب..

رابعا: وبسبب هذا المنهج الخاطئ ـ منهج تطبيق الوضعية المادية فى دراسة الروحانيات والإلهيات ـ مضى المؤلف فأطلق على المثل العليا التى بشر بها الدين المؤمنين ـ من مثل: الجنة والسعادة الأخروية ـ أطلق عليها وصف «الخيال».. فقال ـ ص١٣٢، ١٣٣: «وقد استطاع محمد أن يبدع مثلا عاليا قويا للشعوب العربية التى لا عهد لها بالمثل العليا، وفى ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص، وذلك المثل الأعلى الجديد هو من الخيالات لا ريب، شأن المثل العليا التى ظهرت قبله، ولكنك لا تجد من الحقائق ما هو قوى قوة هذه الخيالات ولم يتردد أتباع النبى فى التضحية بأنفسهم فى سبيل هذا المثل الأعلى طامعين فى الجنة التى لا يعدلها شىء من متاع هذه الحياة الدنيا».

خامسا: كذلك قاد هذا المنهج الوضعى المؤلف إلى خطأ فاحش آخر، عندما تحدث عن القرآن الكريم باعتباره من تأليف أُمِّيى قليل التعليم ـ بسبب ما زعمه من قلة الترتيب بين أجزاء القرآن ـ فقال ـ ص١١١: «ويقال إن محمدا كان قليل التعليم، ونرجح ذلك، وإلا لوجدت فى تأليف القرآن ترتيبا أكثر مما فيه، ونرجح أيضا أن محمدا لو كان عالما لما أقام دينا جديدا، فالأميون وحدهم هم الذين يعرفون كيف يُدْرَكُ أمرُ الأميين».

لقد زعم المؤلف ذلك.. مع أنه فى أماكن أخرى من الكتاب ـ مثل ص١٠٦ ـ يرى القرآن وحيا، فيقول: «وأخذ القرآن يكتمل بفضل تواتر نزول الوحى على محمد».

لكن، اتساق المؤلف مع فكره غير بعيد إذا نحن تذكرنا أن الوحى ـ عنده ـ هو «الهوس».. فمراده هنا تواتر نوبات الجنون!..

وسادسا: على رغم أن المؤلف ينفى عن الإسلام تهمة إشاعة التحلل الجنسى، والإغراء والإغواء بالشهوات الحسية والغرائز الجنسية ـ وهى التهمة التى زعمها كتاب غربيون، عارضهم جوستاف لوبون فى هذا الكتاب ـ فإننا نراه ـ فى ص١١٢، ١١٣ ـ يردد التهمة المكرورة التى شاعت فى كثير من الكتابات الغربية ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى ولعه الشهوانى بالنساء، وإكثاره من الزواج بهن.. فيقول: «وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء، وهو الذى اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يُخْف محمد حبه للنساء، فقد قال: حُبب إلىّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عين فى الصلاة».

ولو أن المؤلف قد فهم معنى حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، لهذه الثلاث ـ الطيب، والنساء، والصلاة ـ وكيف أن هذا الحب تحكمه قاعدة التوسط والاعتدال ـ لأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو الذى نهى عن الغلو حتى فى العبادات ـ لفهم أن هذا الحب بعيد كل البعد عن الفهم الذى ظنه، وعن الرأى الذى زعمه.

ولو أنه فهم مقاصد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أغلب من تزوج بهن ـ فى سنوات عمره الأخيرة ـ بعد تجاوز سن الشباب.. وتكاثر الأعباء ـ فى شئون الدين والدنيا ـ ولو أنه درس حالات هذه الزيجات دراسة واقعية، لما تطرق هذا الوهم وهذا الاتهام إلى كاتب هذا الكتاب.

* * *

تلك هى أهم المآخذ على هذا الكتاب.. وهذه هى أكثر الأخطاء الفاحشة التى وردت فيه..

وفى ضوء هذه الحقائق.. لى ملاحظتان:

أولاهما: أن حجم الكتابات التى جاءت فيها هذه الأخطاء لاتعدو أن تكون صفحات قليلة جدا، وكتاب تبلغ صفحاته ٦٦٠ صفحة ـ وهذا لا يقلل من فحش وخطر هذه الأخطاء..

وثانيهما: أن طلب مصادرة كتاب ترجم وتوالت طبعاته منذ أكثر من نصف قرن سيبدو موقفا فيه من ضيق الصدر أكثر مما كان عليه الأزهر وعلماؤه طوال تلك السنين.. لذلك، أرى أن الموقف المناسب لهذا الكتاب وأمثاله من الكتب التى تكثر فوائدها للفكر التاريخى الإسلامى، والتى تزخر بشهادات غربية تنصف الإسلام من المفترين عليه، وتسلّح العقل المسلم «بشهادات شهود من أهلها» ـ كما هو حال هذا الكتاب ـ والتى ـ مع هذه الميزات الإيجابية ـ لاتخلو من أخطاء لا يصح السكوت عليها.. أرى أن المنهاج الواجب اتباعه مع مثل هذه الكتب ـ التى خلطت صالحا كثيرا بسىء قليل ـ هو نفس المنهاج الذى اتبعه علماؤنا ـ من جيل أساتذتنا ـ عند نشر الطبعة العربية «لدائرة المعارف الإسلامية» التى وضعها المستشرقون.. وأشاعوا فيها الكثير من السموم والأخطاء ـ فلقد قام علماؤنا بكتابة التعليقات والتوضيحات والتصحيحات على المواد التى رأوا فيها افتراء على الإسلام أو جهلا بحقائقه.. ونشرت هذه التعليقات قرينة الترجمة الكاملة لما كتبه المستشرقون، ليرى القراء وجهتى النظر، فيتدربون على المقارنة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، فتتكون لديهم الملكة النقدية، ويزداد إيمانهم بالحق الإسلامى

عندما يرونه فى ضوء النقيض.. وذلك فضلا عن حماية القراء من الوقوع فريسة للجهل والافتراء، أو قلة العلم بحقائق الأمور..

وحتى يتم تحقيق هذا الهدف ـ التقديم للمترجمات الحاوية لافتراءات أو أخطاء تخالف المعلوم من الدين بالضرورة ـ فلابد من أن يطلب مجمع البحوث الإسلامية من السلطة التنفيذية للدولة إعمال القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م الذى قرر أن الأزهر هو صاحب الرأى فى الشأن الدينى ـ وهو القانون الذى فسرته ودعمته فتوى تسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة رقم ٦٣/١/٥٨ ـ الصادرة فى ١٩٩٤/٢/١٠م.

الأمر الذى يستوجب عرض المواد الفكرية والفنية التى تعرض لما هو معلوم من الدين بالضرورة مثل أصول الإيمان وأركان الإسلام: الألوهية.. والنبوات والرسالات.. والوحى.. والغيب.. والأركان الخمسة للإسلام ـ عرض المواد الفكرية التى تعرض لهذه الأصول ـ مؤلفة أو مترجمة هذه المواد ـ على مجمع البحوث الإسلامية.. لا بهدف المصادرة. وإنما بهدف كتابة التصحيحات والتوضيحات التى تنشر كمقدمات أو تعقيبات أو تعليقات على هذه الكتابات..

وبهذا المنهاج تضيق مساحة طلب المصادرة.. و فى نفس الوقت لا تترك الأخطاء الفكرية دون تصحيح..

وإذا كان من الواجب تعميم هذا الالتزام على كل مؤسسات النشر والطبع فى بلادنا، فإن التزام وزارة الثقافة، ودار نشر الدولة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ بهذا هو من أولى الأولويات..

إن كل مؤسسات الدولة تستفتى أهل الاختصاص فى مؤسسات الدولة الأخرى.. فمجلس الدولة هو المستشار القانونى لكل مؤسسات الدولة.. والأزهر ـ وهو من مؤسسات الدولة ـ هو المستشار الدينى لكل مؤسسات الدولة ـ وهذا هو الذى حدده القانون.. فاستشارته فى صلاحية واتساق الفكر مع المقومات الإيمانية الإسلامية للمجتمع ـ تلك التى نصت عليها المواد الأولى فى الدستور ـ هى حق وواجب على الأزهر ـ ممثلا فى مجمع البحوث الإسلامية ـ وعلى كل مؤسسات الدولة أيضا..

وفى الختام.. فالرأى مفوض..

والله ولى التوفيق..

١٠ شعبان ١٤٢١ هـ
٦ نوفمبر ٢٠٠٠ م

دكتور
محمد عمارة

الفهـــرس

تمهيد بقلم الدكتور محمد عمارة ٣
التعريف بالعلامة محمد فريد وجدى بقلم د. محمد عمارة ١٤
فى نقد كتاب [حضارة العرب] للدكتور جوستاف لوبون ١٩
المقال الأول ٢٠
المقال الثانى ٢٧
المقال الثالث ٣٢
المقال الرابع ٣٩
المقال الخامس ٤٦
المقال السادس ٥٣
المقال السابع ٦٠
المقال الثامن ٦٨
تذييل ٧٧

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٢١١٥٣
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7902-1

١ / ٢٠١٣ / ٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)